عزيز تبسي

يوم.. كل يوم

قصص







ب

يوم... كل يوم

عزيز تبسي

يوم... كل يوم

(قصـــص)

دار الفارابي

الكتاب: يوم... كل يوم
المؤلف: عزيز تبسي
الغلاف: يوسف عبدلكي

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب:٣١٨١/ ١١- الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: تموز ٢٠١٥

ISBN:978-614-432-355-7

المحتويات

إلى ذكرى الصديق

هيثم الخوجة

انفعال ١

في الصباح، لحظة تفتح صنبور المياه ترى أن ما يسيل حليبٌ دافئٌ من ضرع نعجة، تملأ كفيك المضمومتين على هيئة طاسة وتقرب وجهك ليلامس وجه المياه البارد، ثم تفتح الصنبور عن آخره واضعاً رأسك تحت دفق مياهه طارداً الثغاء من قفر سهوبك.

في الصباح، ترى أمك طالبة بأنشوطتين بيضاويتين وعنق نحيل وابتسامة مضيئة، تجلس أمامها على الشرفة الضيقة وترفع فنجان قهوتك من حضنها المعدني، على مهل وأنت ترشف، تتيقن من أصابعها المشققةِ وخاتمها الملتصق باللحم المتهرئ، خفرها المضموم الشفتين وهي تعيد شدَّ منديلها الأبيض على رأسها، تسمع همس صوتها المجرّح يغلق الباب خلفك «خبز وبندورة».

في الصباح، ترى سوسن فاتنة، تشد خصرها بحزام مخمل نبيذي، تصالب ذراعيها على صدرها وتدق برأس حذائها المدبب البلاط النظيف منتظرة خروجك أمام باب شقتها المفتوح. تقول لها وأنت تراها من علٍ: «صباح الخير» تقترب مسبوقة برائحة البصل، ترى الزغب الأسود النابت فوق شفتها، انحناءة خط الكحل الخارج

من جفنيها، رؤوس الشعيرات الطالعة حول قوسي حاجبيها، دبق أحمر الشفاه «طريقك إلى البريد، ضع لي هذا المظروف» تبسط كفها الملطخة بصدأ دم الحناء، ترفع المظروف، تسحب كفها بسرعة إلى صدرها ليتحرك هناك فأر محاصر بالكمائن، تخفض بصرك لحظة، تسمع صوتها المصاب بالقشب «خذ ثمن الطوابع». على مهل تنزل درجات السلم الحجري إلى العمارة، تشم هواء «ملوثاً بالمازوت وزيوت المحركات» ترى بهاق ابتسامة بائع الفول الذي يعمل لمصلحة المخابرات، قبل أن تحول بصرك عنه تسمع صوته المحروق بالخل «صباح الخير جار... الفول جاهز تفضل» تتابع كأنك لم تسمع، تقرفص لتقلب طرفي بنطالك كيلا يتلوثا بالوحل وتتأكد من وجود البطاقة الشخصية، رغم خروج الجيش من شوارع المدينة.

عند المفرق ترى ابراهيم في معطفه الكحلي، مقوساً وراء كيس زوادته الشفاف الذي يظهر رغيف خبز وحبة بندورة وبصلة مقشرة «صباح الخير»، «صباح النور» وينعطف في الزقاق تاركاً صوته المشبع برائحة السحلب في أذنيك. الشوارع المبللة بأمطار الليل تمتلئ رويداً... رويداً بضجة المحركات وبأناس ذاهبين مثلك إلى أعمالهم، تشعل سيجارة وتحاول تدخينها تاركاً يديك في جيبي بنطالك تنعمان بالدفء المفترض، تتابع بخطوات سريعة لتجتاز تقاطع الطرق، تمر بأجمة عاملات مؤسسة التبغ ورتل جنود مدرسة المشاة... الوجوه هي هي زجاج غبَشه الضباب. تحت المظلة الإسمنتية تجد نفسك أمام

بائعة الورد العجوز المقرفصة خلف طبقها المعدني الممتلئ بباقات صغيرة طازجة من النرجس والبنفسج وأطواق الياسمين، رغم أنك لست عاشقاً، لست ماضياً إلى مشفى أو رصيف دار المعلمات، تخرج يدك الدافئة بقطعة نقدية وتنحني أمامها، «باقة نرجس من فضلك» تشد على السيقان الخضراء وتتابع على الرصيف الضيق الطويل حالماً أنك ستكون عاشقاً يوماً ما، تقف بغتة، تسند ظهرك إلى زاوية العمارة غير منتبه لحجبك الصورة، الصورة الموزعة على مفارق الطرقات وواجهات العمارات، تنتظر بلهفة وصولها من آخر الرصيف...

انفعال ٢

لا شيء إلا نيتك أن تقول لها: صباح الخير.

تستيقظ باكراً لتحتسي القهوة بمفردك متجاهلاً طلب زكريا زميلك في الشقة بضرورة الاستيقاظ المبكر لتحضير درس العلوم لطلاب الصف العاشر. تقص أظفار قدميك ويديك، وتحلق ذقنك ضاغطاً برعونة على حد الشفرة حتى رشح الدم، تدخل الحمّام وتدلك رأسك وجسمك طويلاً بصابون الغار، ترتدي ألبسة داخلية بيضاء نظيفة، تدخل المرحاض وتفرغ محتويات أمعائك ومثانتك، تسرح شعرك بأصابع ناسجة سجاد وأنت تنظر إلى المرآة، ثم تعيد بعثرته بمخالب قُط، تقلبه إلى الأعلى، الأسفل، اليمين، اليسار، تأتي بالمقص الصغير لتشذِّب أطرافه الطويلة، تنظر إلى الساعة فتسرع طيه إلى اليمين، تستعجل على المغسلة، تفرك أسنانك، ترتدي بنطالك الكموني وقميصك الأبيض تفرغ بقايا زجاجة العطر في بطن كفك وتدلك عنقك وجبينك ووجنتيك.

لا شيء إلا نيتك أن تقول لها: صباح الخير.

تمسح حذاءك تطليه باللون الأسود، تخرج جورباً أبيض جديداً، تحرك قرص المذياع لتريح أعصابك بأغنية في موعد يبث فيه عادة

أغاني فيروز، تجلس على طرف السرير، تشد الساعة في معصمك، تشعل سيجارة فتشمُّ مع دخانها عطر بعد الحلاقة، تملأ جيب قميصك ببطاقتك الشخصية ودفتر الهواتف وقلم حبر ناشف وعلبة تبغ وقداحة، تقف أمام المرآة وتتحسس صدرك، لقد انتفخ، تخرج الأشياء وتوزعها في جيبي بنطالك وتحت الحزام، تمسح بخيلاء صدرك المستوي.

عبر النافذة ترى جارتك العجوز تتفقد حبال السجق قبل أن تغسل وجهها، ترتل دعاءك المفضل هذه الأيام «اللهم اجعلني مقبلاً على الحياة إقبال جارتي على السجق» تطفىء المذياع، تقترب بخطوات متمهلة من باب الشقة لتسمع رنين حذائها على البلاط الجاف، تنظر إلى الساعة لتتأكد من الوقت، السابعة إلا خمس دقائق، تسمع حركة يقظة زكريا، تلتفت وتراه بقميصه الداخلي الكحلي وشعره المنفوش، المنشفة المتدلية على صدره الأشعر، تثاؤبه الذي يشبه هراً مصاباً بالبكم، تقترب منه تلمس ذقنه بإبهامك وتقول له كأنك تعتذر عن تجاهل الإيقاظ: «صباح الخير» وترفع وجه الساعة إلى عينيه، لم يفت الوقت على تحضير الدرس، تسمع صوتاً، تتركه إلى باب الشقة، تفتحه وتراها، تشد على حبل محفظتها الجلدية الطويل، تخفض بصرك، تشد الباب خلفك بقوة لتشعرها بوجودك، قميصك، ذقنك الحليقة، عطرك، تسريحة شعرك، بياض أسنانك...

لن تلتفت، تتقصف في فمك صباح الخير، ببطء تنزل خلف عطرها الذي له رائحة الفانيليا.

انفعال ٣

على الشرفة فتاة بثوب أبيض توزع أكواب عصير البرتقال على ضيفات أمها العجائز.

في الشارع، أطفال، بائع لب الجوز... حمل كرسيه وكتابه وإبريق الشاي وكوباً فارغاً وعلبة سكر، السياج الحديدي يطوق الشرفة.

على الشرفة فتاة بثوب أبيض ترسل ضحكتها في الأفق المحاصر بالنمائم.

اعتاد الحليب الممزوج بالماء، الخبز النيء، امرأة تعبر دون أن تقول صباح الخير، صفعات تأتي بلا سبب، إسمنت يقوس الظهر قبل فوات الأوان، أحاديث تنقطع لحظة تسمع القرقعة على أسياخ الحديد حتى لا يتسرب كقطة لحظة ينشق الباب.

الأشياء تتشرب لون العصفر الجاف، السماء، الشرفات، الوجوه، الرصيفان المتوازيان، أسلاك الكهرباء تقطع الأفق، الخفافيش تفتق ما ترتقه العيون.

لا شيء يستحق الوصف. غرفة على السطح حولها أعمدة المداخن لتظهرها معبداً، سرير عتيق يهتز كأرجوحة ساعة الكابوس،

خزانة خشبية، صندوق بندورة مغلف بالجرائد ممتلئ بالكتب، على الجدار صورة لرجل يقدم ابتسامته طبق أرز بالحليب.

على الشرفة فتاة بثوب أبيض تطوي ذراعيها على رجفات ضحكة. غسل الشرفة وأبقى الماء على البلاط الساخن ثم سحبه إلى البالوعة، مدّ ذراعه ليتأكد من برودة المدخنة التي نفثت هبابها قبل ساعة. عجوز يلوح بعصاه لسرب حمام، أمٌّ تضع إصبعها في فم طفلها تتحسس لثته لتتأكد من بروز أسنانه، طفل يجر خلفه خيطاً طويلاً ربط بطرفه بومة ميتة، الزنابير الآتية من صناديق العنب تسرق متعة المشي المتزن على الرصيف، سيف عال... سيف عال ذو فقارين يمكن أن يقطع الراس لكنه الآن مظلة لانحلال أملاح التعب في العضل.

فتاة بثوب أبيض يتدلى من شحمتي أذنيها قرطان على شكل لوزتين من زجاج لازوردي، ترفع عنقها بخشوع، تسعل رافعة كفها المكسورة إلى فمها تغني «ليليي بترجع يا ليل وبتسأل...» تلوي حرف الراء مثل خيط على إصبعها، لشيء واحد هو أن لا ينسى أنه على الشرفة. وريق خالته الطويلة كعصا والممتلئة بالحليب والصمت، على خده صمغ. في زمن عبر كالحافلات الكهربائية إلى بيادر الحديد، مبراة القلم لا تصير ممحاة، الشوارع تضيق بباعة ليف الحمّام وأكياس التدليك والدبابيس...

الأطفال يبدون أكثر خجلاً، النساء يرمين المناديل التي لها لون السكر، فم مفتوح على امتداد الشارع ينادي على شراب الورد البارد.

لكن!!!

ماذا يفعل بالعصفور الذي قتله ليدرب عضله النامي على قذف الحجر؟ صلب بقايا دفء لكنه ميت... ماذا يفعل بعصفور ميت؟

فتاة بثوب أبيض... ليس ثوب زفاف، ليس كفناً يليق بجمالها... فتاة بثوب أبيض توزع أكواب البرتقال على ضيفاتها... تلملم الأطفال المشعثين حولها لتغني لهم في عز النهار «لأجل نوم ريما... سأذبح» وهم مثله يراقبون شفتيها ويتركون غناءها الرطب يتدلى على حبال الغسيل.

ببساطة تدخل المرأة المجاورة كفها الممسكة بمنديل ورقي زهري من فتحة صدر ثوبها لتجفف عرق إبطيها.

ببساطة، يقذف الولد نواة المشمش لا لشيء سوى سماع صوت ارتطامها على بلاط الرصيف.

ببساطة، تقطع فتاة الوردة وتتركها تتساقط مثل فراشات تائهة فوق حذائها الأبيض المثقَّب كنسيج الدانتيل.

على الشرفة دلقت فتاة عصير البرتقال على ثوبها الأبيض وركضت إلى الداخل، فتاة تغادر ثوبها الذي كان أبيض، معاً انتظرا صباح الجفاف، القلب باذنجانة شقت وملئت بالثوم وقطع الفليفلة الحمراء والجوز المكسر، باذنجانة تنام في آنية الزيت. في الأعلى، طير أسود، رجل يتشمم إبطه، في الأسفل، جيوش النمل تسحب صرصوراً ميتاً، الأصابع تحت سطر مثلوم من الكتاب الثقيل، فتاة تلملم ثوبها الأبيض الجاف، تحمل طبق فناجين القهوة إلى رجل يسعل وامرأة ترتق جفونها المتهرئة.

في الكف ثآليل قاومت أحْماضها، المرأة الأخرى تطالب بالقثاء ولا تمسح الوجه بتحية الصباح، بشفتيها تقطع خيوط الملح وتضع يدها بين ساقيه: كبرت!!

- أنت أيضاً، شعرك أبيض، لم يقل لي إنك كبيرة لنطفئ المصباح...
- ألم تنم مع امرأة قبلاً؟
- لا. ولن أكررها مع سواك. سأنتظر ذاك اليوم الصاخب.
- كل شيء سيتم بسهولة. لا تخف.
- تعرفين أنني سأقبلك... تعرفين لماذا أكلت بصلاً؟

الضمير خصيتا بغل... خصيتا بغل.

وسيأتي ابراهيم ليقول له: ما قولك بعشرة أحزاب لطبقة؟

- وما قولك بحزب لكل الطبقات.
- ألا تؤمن بالصراع الطبقي؟
- بلى، الطبقات بلا صراع، أحجار بازلت تماثيل رخام إن شئت... قلت طبقات أليس كذلك؟
- هل اختمر الشاي؟
- أعندك صورة لسامي؟
- لماذا؟
- لنعدَّ له صورة حداد تليق بصديق... من يذهب إلى المقاومة لن يعود... وقتنا طويل سنعدُّ مراسم الحداد بهدوء.

- نحذر تصلب الشرايين ولا نأكل لحماً!!

وسيأتي عمار، يرمي كتبه على الطاولة ويخرج إلى الشرفة

- أتشم الرائحة؟
- هذا النهر سيخنق المدينة.

نهر ليس كالأنهار.

نهر قسم المدينة.

ليس سوى مرحاض.

ليس سوى مؤخرة مكشوفة بلا خجل.

الناس تتفرج على خرائها.

الناس تمتدح خرائها.

نهر قسم المدينة، كان نهراً ككل الأنهار الحنونة وصار أمعاءً نتنة.

- النهر والكبَّة عناصر أساسية في شخصيتنا، لا تنس ذلك.
- هل هذه ثورتنا؟
- لا أعرف، لم أرَ ثورات، رأيت مشاجرات وشغب ملاعب... هناك تشابه... تشابه ما، ربما تكون ثورتنا هكذا...
- الكل يتحدث عن التراث، عمار ما يعني لك التراث؟
- أشياء كثيرة...
- وأنا كذلك... لكن هذا الشكل من العلاقة مع التراث نيكروفيليا، ألا تعلم ما هي النيكروفيليا؟ أقول لك: النيكروفيليا هي مضاجعة الموتى. اشرب الشاي واسمعني جيداً... مضاجعة الموتى.

المرأة بثوب أبيض تغطس الحلمة البلاستيكية في كوب اليانسون الفاتر وتضعها في فم الطفل، تحرك شفتيها كأنها تغني... لكنه لم يعد يسمع شيئاً ولا أحد يطفئ القمر ليستيقظ ويخرج إلى الشرفة المهجورة، لا أحد.

افتقاد ١

ذات صباح صعدت إلى السقيفة، زحفت مثل أفعى، تحسست بأطراف أصابعي أكياس المؤونة: البرغل، العدس، الأرز، السكر، السميد باحثاً عن كيس الجوز، لا أعرف ما استدرجني من فراشي وأنا في المنامة البيضاء التي ستتسخ وسينكشف أمر مخالفتي في الصباح. من جعلني أحلم بالجوز؟ سمعت حركة في المطبخ، نظرت لأرى أمي في منامتها البيضاء، تشد شعرها على غير العادة إلى الخلف على هيئة ذيل الفرس، فتحت صنبور المياه ورشقت وجهها وقبل أن تجففه أشعلت الغاز ووضعت فوقه وعاء الحليب الذي أخرجته من البراد.

تجمدت في مكاني، أية نأمة ستكشفني وسيعاقبني أبي. دخل أبي بمنامته البنية وشعره الأسود الفاحم، لم يغسل وجهه، وقف أمامها حادثها بكلمات لم أفهمها لأنني لم أسمعها، بعدها مدّ يده إلى صدرها وأخرج نهدها، أزرق، يا إلهي نهد أمي أزرق، انحنى على الحلمة وضغطها بشفتيه.

لم أبح بما كان يفعل، لكن أمي بدأت تنتفخ مثل منطاد، سحبت ساقي وأخفيت جسدي خلف كيس البرغل. أبي لم يرفع فمه عن

حلمتها، الحلمة التي أرضعتنا أنا وإخوتي، أردت الصراخ «أن يكفّ عن نفخها، أبي أتوسل إليك كفى...» لم أنطق ولم يسمع.

سمعت صوت ارتطام نعلها بالبلاط، كأنها ترفع عن الأرض وأبي يدفعها نحو النافذة المفتوحة دون أن يرفع شفتيه عن حلمتها، كان لأصابع قدميها لون السفرجل.

سقطت الجوزات من يدي، نسيت العقوبة، نسيا أنّي على السقيفة، دون أن أستخدم السلم رأيت نفسي مكوراً على البلاط قرب قدمي أبي، نهضت وركضت إلى أخواتي النائمات لأدعوهن لرؤية أمي، أمنا... ركضنا جميعاً، لكنها لم تكن في المطبخ، أبي فقط يعد القهوة، قهوته مبعداً وعاء الحليب... تجمعنا حول النافذة، لاصقنا رؤوسنا كأننا ننظر من كوُّة. رأيناها، كانت ترتفع، مددنا أذرعنا القصيرة نلوح لها كأننا نودّعها، ذراعاها بقيتا مسبلتين... أمي ألا ترييننا؟ هل غضبت مني؟ ماما أنا لم آكل الجوز... لن أعيدها مرة ثانية وأصعد إلى السقيفة دون إذنك.

من بعيد رأيت ابتسامتها، نهدها الأزرق الذي تركه أبي خارج ردائها الأبيض. خجلت، سيرون نهد أمي، نهدها الذي أعطانا الحليب، والحياة حليباً كانت.

مثل عيدان اليابسة تقصفت ساقي وتكومت خرقة مبللة على البلاط البارد. قالت عمتي: أمك صعدت إلى السماء وكلنا سنصعد إليها. صدقتها لا لأنها عمتي بل لأنني رأيت الصعود.

بعدها أنزل أبي كل نجوم السماء إلى كتفيه وصار يحب الضحك، والشخير قرب رأسي طوال الليل والحياة صارت ليلاً.

افتقاد ٢

في ذاك الصباح وفي الساعة السادسة تماماً.

تفتح الباب كأنها تفكُّ أزرار قميصك لتكشف عن لحمك وتتأكد بصبر أنك لست مصاباً باحمرارات الحمى. تغلق عيناً وتفتح أخرى مثل ثعالب القصص وهي تراوغ فرائسها. لكنك لست أكثر من ابن متعب يحب النوم في ساعات الصباح الأولى ولا يحب الكلام، ترفع طرف الأغطية المتدلية فوق البلاط البارد وتشد باليد الأخرى على الطبق المعدني الذي يحمل ركوة القهوة وكأس الماء والفناجين، تجلس على طرف السرير مسندة الطبق إلى فخذيها المضمومين، تنظر إليك دون كلام وأنت كذلك.

تكشف للمرة الألف أنّ عينيها كُرتا رماد. تمد أصابعها الجافة وتسحب طرف اللحاف كأنما تكشط ضمادة جرح، إلى صدرها يأتي الهواء البارد من النافذة ومنها أيضاً يأتي نداء بائع الحليب ورنين أجراس حصان عربة الوقود، تمسك بمقبض الركوة وتسكب على مهل...

تحاول النهوض بكسل، تكتشف أنّ جلوسها على الفراش ذريعة

للاسترخاء الأطول. هي تنهض لتأتي بالمذياع الصغير وأنت لتسند ظهرك إلى المخدة.

تتثبت عيناك في وداعة عينيها والإبرة على أغنية «يا حلو شو بخاف إني إسألك...» تعاود الجلوس على طرف السرير وتضع المذياع على الطاولة الصغيرة القريبة. تقدم لك فنجان القهوة، ترتبك هنيهة، ثم تمد كلتا يديك، كاهن بوذي يتبارك قبل رعيته بالبخار... ببخار القهوة المتصاعد، تنهض روحك من حضيضها، تلتفت إلى النافذة المفتوحة وترى السماء كما كل يوم سفرجلة مذبوحة على امتداد عظم القص.

وأمك لن تتركك كما كل يوم، تقول وهي تغطي فمها بطرف منديلها الأبيض: كانت بيضاء... بيضاء، طارت فوق رأسي، أردت إمساكها لكنها ارتفعت كأنها قالت لي شيئاً، لا أعرف ما هو، ربما نادتني باسمي، ربما صبّحتني، لكنها قالت لي شيئاً، لحقتها ركضت تحتها، هتفت لها: انزلي، خائفة... كانت خائفة، وأنا انقطع نفسي، ركعت على الأرض، قطفت زهور بابونج وشممتها، أسبلت جفني ونمت... لا أعرف كم، دقيقة... ساعة... يوماً وليلة. حالما صحوت رأيتها تنقر حفنة حنطة من كفي. شددت أصابعي فانحبست.

قمت إلى حجرة ووضعتها فوق جناحها وابتعدت. سمعتها تناديني. هذه المرة سمعتها، سجيع طويل... لا يا ماما ستكسر جناحي... لا يا ماما.

برضاي عليك لا تغب عني... برضاي عليك لا تغب.

في الصباح وفي السادسة تماماً كانت تفتح الباب كأنما تفك أزرار قميصك...

جروح ١

أمي... أمي الأرض استقبلتني، أمي المكتسية بالإسفلت الكحلي والبلاط الرمادي الناتئ، أمي المتسخة بالبول وقشور البطيخ والخيار، ضمادات المختونين والقطن النسائي عاقبتني بثلاثة كسور في ذراعي اليمنى.

لم يكن حلمي عظيماً، فقط أردت أن أقول لأخي: أخي الشجاع والمغامر، إنني مثلك أتسلق الأسوار وأركض بمرح على حافتها الضيقة. كنت متعباً لكنني أستطيع أن ألوح لك بذراعي وأضحك هازئاً من انضباطك وأنت تسير الهوينا في الرتل الأحادي، وكنت جائعاً وسأنتظرك طويلاً بلا تردد متجاهلاً نداءات أطباق التبولة والبطاطا المقلية والأرغفة البيضاء التي سأقشر وجهها بسهولة سلخ جلد جرح جاف.

لم أره، قذفت صوتي شبكة صياد يغالب صخب الموج، انتظرت صوتاً، انتظرت وجهاً، تلويحة منديل من نوافذ الصفوف المكسرة، لم يأت شيء، يسكت هدير القلب.

صعدت إلى السطح، السماء كحلية صافية تتلألأ بغبار النجوم...

صعدت حرمون... الكرمل... الشيخ... الأقرع... الأربعين حيث الأرض تقترب من الصوت العظيم.

طوبى لمن رآها في حياته فاتَّبعها.

طوبى لمن رآها في منامه فاعتنقها والله بقلوب المؤمنين بصير.

من الأسفل هذه المرة أتى الصوت رسالة مشحونة ببحة عميقة، أنين رئة مثقوبة.

تشقّقت الأرض انبثقت دبابة مطلية بالأزرق كأنها علبة كريم نيفيا، دبابة حقيقية تأكدت من جنزيرها، برجها، مدفعها العسكري الملثم بغطاء جلدي يطل من الأعلى.

تقدمت ببطء اقتلعت الإسفلت... اقتربت من السور، سور المدرسة وقذفت الناس المجتمعين أمامها وحولها بسائل أبيض له رغوة كثيفة. الناس ماتوا من الضحك وأنا سقطت لا لأضحك معهم بل لأحمل كسور ذراعي الثلاثة وأركض إلى أمي الأخرى ناسياً كتبي ودفاتري على الرصيف. لم أبكِ لاقتناعي الطفولي حينئذ أنّ الناس لن تتفهم سلوكي إلا كتشويش غير مؤدب على أفراح يوم النصر...

ولحظة نظرت خلفي مودعاً كتبي ودفاتري إلى المشفى، رأيت أرتال جنازات رغم أنه سائل أبيض... سائل أبيض ذو رغوة كثيفة.

جروح ٢

عندما سمعت أمي نداء البائع، ريحاوي ياكرز الآتي من الشارع الساكن، وضعت الكنزة الصوفية التي تطرز رسوماً على صدرها على الطاولة الصغيرة وأسرعت إلى الداخل، وبقيت على الكرسي أتابع سوبر مان في المجلة المصورة، رغم أني أحب الكرز لم أرفع المجلة من يدي وأنظر من الشرفة، حيث كنا جالسين من السابعة صباحاً، على الهرم الأحمر.

- أسرع اشتر كيلو لتأكله مع أختك.

سحبت من يدي المجلة ووضعت في كفي التي بقيت مفتوحة نصف ليرة، شددت عليها ونهضت.

- سأنتعل حذائي.

- لا ضرورة... البائع قريب.

ركضت وأسرعت خلفي، فتحت الباب وخرجت.

- سأترك الباب مفتوحاً حتى تعود.

هبطت درجات السلم بسرعة لأتوقف عند كل مصطبة وأعيد إدخال قدمي في الشحاطة التي سرعان ما أراها خالية أمامي تنتظر

قدمي الحافيتين. هذه الأعمال الصغيرة تشعرني دوماً بالامتلاء والخيلاء الذكورية المبكرة، شراء الخبز، حمل الخضار من السوق مع أمي، محاسبة جباة المياه والكهرباء، تصليح خط كهربائي، لكن هناك ما يشعرني أنني أنثى منكسرة في ظلال بيتها، غسل أطباق الطعام، نشر الغسيل، مسح الأرض والجدران... تعايش سلمي أوجد مقوماته داخلي واستمر.

ركضت خلف نداء البائع الغائب في الأزقة، توقفت أمامه لاهثاً ووضعت نصف الليرة في طبق الميزان، دون كلام حمل البائع القطعة النقدية إلى جيب الكنغر المتدلي من حزامه بدأ يزن الكرز.

حملت الكيس الورقي وعدت متمهلاً على الرصيف الخالي، أتحسس حبات الكرز من خارج الكيس الكتيم.

فجأة، زعق زمور الإنذار، الذي كثيراً ما كان يزعق يومها، رأيت رجلاً يرتدي بزة عسكرية يركض نحوي، لحظتئذ كنت أدس أصابعي في الكيس وأسحب حبة لآكلها. دفعني بيده، وقعت على الأرض، فرت مني أية رغبة في النهوض، رفعت عيني ببطء عن البلاط الوسخ، رأيت حبات الكرز وهي تفقد لونها النضر تحت نثرات غبار السجاد ومياه غسل الشرفات الزرقاء.

ولحظة تذكرت أمي، المنتظرة وأختي، نهضت، سحبت قميصي من تحت سروالي القصير ولملمت الكرز قبضة... قبضة ووضعته فيه، حاولت الركض لأعوض ما سرق من الزمن فلم أستطع، شعرت بألم

في ركبتي. حالما وصلت إلى البيت دلفت من الباب الذي ظل مفتوحاً إلى المطبخ، أفرغت الكرز في وعاء نحاسي وفتحت الصنبور لأغسل الدبق والغبار عن يدي والكرز.

دخلت أمي، التفت إليها وأشرت إلى وعاء الكرز الذي يسترد لونه تحت دفقات المياه. لكنها لم تنظر إلا إلى قميصي المبقع وجبيني المبقع كذلك بكدمة زرقاء ونثار الدم.

احتك زجاج الكلمات بحلقي، أردت القول سامحيني، أردت القول ليس ذنبي، ربما رغبتُ في البكاء... لم يخرج حرف من فمي ولم أسمع إلا تمزق صفعة على خدي متبوعة بعبارة كثيراً ما يرددها الصافعون: ألن تكف عن الشيطنة؟

ركضت خارجاً من المطبخ، تاركاً الصنبور مفتوحاً فوق وعاء الكرز إلى غرفة أختي، كنت بحاجة إليها، رأيتها مضطجعة على السرير وقرب رأسها المذياع الصغير غافٍ مثل حبيب وساقاها العاريتان تنوسان في الهواء مع أغنية «تنقل يا غزالي...» ارتميت لا على صدرها الذي بدأ ينمو والذي تضغطه الآن على الفراش، بل على الأرض وفركت جبيني بالبلاط البارد.

جروح ٣

لحظة زعق الزمور شدتني جدتي إلى صدرها، لا لأنها تحبني وتخاف عليّ فحسب، بل لأني كنت مسترخياً في حضنها، وبدأت توزع نداءاتها الآمرة في أطراف البيت الكبير وبقيت ملصقاً خدي بصدرها الرخو كطبق مهلبية مستنشقاً في إغفاءاتي المتلاحقة رائحة ماء الزهر الآسرة.

كأنهن على موعد مع الزمور، خالتي كاميليا أتت حاملة لوحة الكنافة التي تطرزها كهدية لزوجة خالي المقيم في مدينة أخرى حيث يعمل. خالتي إيفون دخلت ضاغطة على المذياع الصغير على أذنها كيلا تفوتها أية أغنية، خالتي روز وصلت تتدلى من طرفي كتفيها خيوط القصب التي تطرز بها جهاز عرسها، وأمي اقتربت لاهثة، على كفيها ريش أسود من الديك الحبشي الذي تنتفه في المغسلة ووقفن أمامها ينتظرن التعليمات:

- ارفعن كل شيء عن أيديكن، سننزل إلى القبو، كاميليا أحضري قطرميز الجبنة وكيس الخبز، إيفون هاتي قطرميز المربى، روز املئي سطل الماء وأحضري صابونة ومنشفة،

وأنت يا... وكانت توجه كلامها إلى أمي، أمي التي لم أعرف اسمها حتى فترة متأخرة وبينما أتدرب على اعتياد نطقه بدون ارتباك، سافرت لاصطياد اللؤلؤ، ولأن الصيد في أعماق المياه لا يتطلب الكلام نسيت الكلام، حتى اسمها نسيته، لكن لا أعرف كيف يأتيني أثناء النوم ويختطُّ أمام عيني برسم كوفي بديع: مريم. افتقدت متعة تسمية الأشياء التي تجعلها أليفة، قريبة من الروح الإنسية، متأخراً سأكتشف أهمية أن يسمي الفلاح أبقاره وأغنامه وكلابه بأسماء أولاده، أسماء بشرية عاقلة. توسيع متعمد لدائرة العائلة ودائرة الائتلاف.

- وأنت يا... أحضري البساط ومخدة كي أسند ظهري.

سرت ضجة صاخبة في سلم العمارة ولحظة فتحت خالتي كاميليا الباب رأيت جاراتنا ينزلن بهلع وهن يحملن أشياء منزلية وبقيت متدفئاً في حضن جدتي رغم أنه حزيران.

خالاتي وأمي وقفن بمحاذاة الباب ينتظرن الأمر الحاسم بالخروج، حملتني جدتي ووضعتني على الأرض/ رأيت ثوبها البني المرقش بخطوط تشبه الفستق. شدت على كفي.

- يا الله...

أولى الخارجات خالتي إيفون حاضنة قطرميز المربى ومن يدها الأخرى يتدلى المذياع.

- النوافذ مفتوحة أليس كذلك؟

ويجبن بصوت واحد: تركناها مفتوحة.

- أأطفأت الغاز يا...؟

- أطفأته.

نزلت الدرجات ببطء وأنا معها، قربها، أمامها، خلفها، أمام باب القبو وقف ابن جارنا الشاب ببزته العسكرية كأنه يعدنا.

- تحت... تحت بلا صوت... أتفهمن... لن أسمع صوتاً سينكشف الملجأ.

الغباوة والجهل كانا السلعة الأكثر رواجاً. كذلك الخوف دوماً.

دخلنا الحجرة المظلمة، اختارت أمي مكاناً لجدتي، فرشت البساط ووضعت المخدة تحتها مسندة ظهرها إلى الجدار الأسود لتأمين عبورها، عبورنا.

- هل ستطول هذه الغارة؟ سألت جارتنا.

- ساعة... ساعتين على الأكثر ردت خالتي إيفون وهي تضبط مؤشر المذياع، رائع خوض الحرب على صوت صباح وانتزاع الانتصار.

سعلت جدتي ليبدو كلامها أمراً: نحن جهزنا أوضاعنا لأسبوع.

- أسبوع... أوو كثير يا خالة. عقبت جارتنا.

- نعمل لكل شيء حساباً.

السيقان العارية تتداخل في الحجرة الضيقة كأنها خيوط معكرونة.

ولكن لها رائحة... رائحة سكر محروق. سيطر الصمت هنيهة عالجتها أصابع خالتي إيفون بفرقعات منتظمة من أصابعها، رفعت عيني إليها، رأسها يتمايل وشعرها الأجعد يهتز كستارة ثقيلة مع الأغنية «...ع الضيعة يما...» لم تجد جدتي نهرها أمام الجارات فاكتفت بالضغط على كتفي.

- اصعد... ربما انتهت الغارة... تأكد وعد بسرعة. كانت أولى مهماتي الحربية. رفعتني خالتي روز المقرفصة قرب جدتي وسلمتني إلى خالتي كاميليا وبدورها نقلتني إلى ذراعي أمي التي استغلت وجودي على ذراعيها فقبلتني كأنما تودعني وهمست في أذني: لا تتأخر... انتبه من العتمة.

انتقلت من ذراع إلى ذراع حتى وصلت إلى باب الحجرة، شعرت بقدمي تلامسان الأرض، هممت بالركض متر... متران... ثلاثة أمتار أوقفتني الظلمة، استندت إلى الجدار وتابعته حتى بقعة الضوء الآتية من بابا القبو، صعدت الدرجات ومضيت إلى ابن جارنا الذي خلع نطاقه الغليظ بدأ يوقف السيارات ليطلي مصابيحها برشقات الحبر الأزرق من المحبرة التي صادرها من البقالة. حالما رآني زعق:

- عد إلى الملجأ وساط الجدار بنطاقه ليخفيني، ولأنني لم أفهم حركته بقيت في مكاني رفعت رأسي إلى الأعلى، السماء زرقـاء الشرفات خالية من الأذرع الممدودة والرؤوس التي تترقب مرور باعة الكباد والتوت والفحم

وأمامي سيارتان تنتظران طلي مصابيحهما وازدحام رجال أمام باب الفرن وزعيق جارنا، تناسينا أشياء كي ننزل إلى القبو. موعد الحمّام... زيارة المقبرة... الاطمئنان على صحة جدتي الأخرى، طبخ الديك الحبشي والأرز، وجدي الذي بقي نائماً في سريره.

خرج الخباز وهتف بانتصار: انتهت! وقضم طرف الكعكة التي تشبه الأساور والرقم خمسة محوّلاً إياها إلى حرف النون انتهت... بلاغ مضاد لبلاغات ابن جارنا.

استدرت وركضت إلى القبو- الملجأ، استقبلتني العتمة دحرجة على درجات لا نهائية...

في الصباح كنّ حولي، خالتي كاميليا تصلي المسبحة المريمية، أمام السرير الأبيض، رأسها منحن على صدرها، منديل دانتيل يغطي كتفيها، وجنتيها، رأسها، لكني عرفتها من أصابعها ومسبحتها، عن يمينها وقفت خالتي روز وعن يسارها خالتي إيفون، قرب السرير جلست جدتي.

كنت نظيفاً في منامتي البيضاء. اقتربت خالتي إيفون ومدّدت قربي بندقية صيد وتراجعت إلى الجدار.

- ابتسم!!!

وضعت آلة تصوير أمام عينيها.

- ابتسم!!!

خرج الصوت كأنه طلقة خافتة من بندقية الصيد التي قربي، أين ذهبت الخردقة؟ أين الدم؟ أين العصفور القتيل؟ بطل!! طوت الآلة ووضعتها على الطاولة البيضاء قرب باقة ورد كبيرة. بطل!!

وجوههن أقراص عسل، لم أرَ أمي وجدي تركوه نائماً في البيت. اقتربت مني خالتي روز ألصقت وجهها بوجهي، لحظتئذ رغبتُ في احتضانها لكنني لم أستطع رفع ذراعي المثقلتين بالجبس أغمضت عيني على مشهد العتمة الذي بات متدفقاً مثل سرب الذباب وسمعت صوت جدتي ينساب كالزبدة على رغيف ساخن...

يجب أن نؤمن بالشيطان كي نستطيع غرس الإيمان الحقيقي بالله في نفوسنا. يا رب ارحم.

ولأنني أردت كره شيء، شيء ما أحمّله أثقال أوجاعي، أعلنت حربي على الكعك الذي يشبه الأساور.

يقظة

تلبي نداءها بسرعة. تضع فوق قميصك الداخلي سترة المنامة وتخرج تاركاً باب منزلك مفتوحاً، لن تتحقق إن كنت ستعرف كي تساعد. «مساعدتك يا جار...» تقف أمامها مستنشقاً رائحة القرفة التي تفوح من العلكة التي تمضغها بتوتر مظهرة أسنانها البيضاء، تخفض بصرك على ذراعيها العاريتين الورديتين بأثر المياه الساخنة، تختلج شفتاك وأنت تعبر بعينيك عنقها الناضح عرقاً.

تلتفت لتدخل باب المنزل المفتوح وأنت خلفها ترفع ساعدك إلى جبينك وتمسح قطرات العرق. ترى أطفالها يلعبون بدمى معدنية فوق بساط مخطط بألوان متنافرة، حيث تشعر بثقل، ثقل ما يضغط على قلبك. لن تقول لهم حتى صباح الخير، تدخل خلفها الحمّام ترفع ذراعها العارية إلى المأخذ الكهربائي «الله يخليك... حصل ماس وتوقفت الغسالة». رغم أنك تخاف الكهرباء تسألها عن مفك البراغي، وحالما تأتيك به تسرع إلى القاطع الكهربائي عند المدخل لتفصل الكهرباء عن المنزل.

تترك الحمّام وتصعد إلى السطح لتنشر غسيلها، تقف أمام المآخذ

تفك براغيه، تقشر غلاف شريط النحاس المنصهر بأسنانك وأظفارك، تحلم بقبلة الشكر وطعم القرفة الذي سيسيل في فمك.

ولأنك تحب شراب البرتقال تتمناه أيضاً، مناسبة لتجلس معها وتحدثها عن ظروف البلاد وإهمال الحي والفقر وفقدان الأمان وأنت تنظر إلى ساقيها، سترفع بكرها إلى حضنك وتروي له طرفة، لن تنتظر سماع ضحكته، تبقى مشغولاً بأصابع أمه التي تشد على كوب عصير البرتقال. لن تصغي إلى حديثها عن كد أبي «العيال» ليل نهار لأجل لقمة الأولاد، ولن تنظر إلى الجدران الموشاة بالرطوبة، رغم البرد لن تستفسر عن سبب رجفة الأطفال والمدفأة المطفأة...

لحظة تنتهي تغادر الحمّام، تراها في الأعلى تحدث جارتها عن أسعار الزيتون والحليب، ويخرج من فمك صوت يشبه الفحيح «انتهيت». لن تسمعك، تلتفت حولك لتتأكد إن سمعك أحد، تعيد مرة أخرى «انتهيت» تستدير على رؤوس أصابعك مثل جندي منضبط، الأطفال على البساط يدحرجون لعبهم المعدنية، تصل إلى القاطع الكهربائي تنظر خلفك ترى برتقال الضوء وتسمع أنين الغسالة، تغلق الباب خلفك بلا نأمة، تسرع بقلب ثقيل إلى سريرك البارد لتسترد نومك المسروق.

سرقات

لأنها أمي يجب أن أصغي، ولأنني ابنها تتكلم. أضغط بأصابعي العشر على فراغات الحاجز الحديدي لأبدِّد توتر الروح في تلك اللحظات الطالعة من قارورة الرهبة، وهي مؤمنة تندب، تدق على صدرها، ترسل ذراعيها في الفضاء المحتجز بالإسمنت، تطفئ كلس الخدين بماء يخرج تواً حاراً من منابع الكبريت. والرب يبحث الساعة في الكراريس عن معصية تبرر إغفاءة الصمت، صمته. كنت بعيداً، يوم أجرت غرفة من الدار وبدأت تعيش كابوس ضيق المكان، مطاردة الفئران، تنظيف الزوايا من نسيج العناكب، الإيقاع بالعثِّ والبراغيث في كمائن النفتالين داخل صناديق لن تفتح على الشمس إلا ساعة الغروب.

قالت: قال أبو ياسر الدلَّال إن العسكريين أضمن من يؤجر، سنة على الأكثر وسينقلونه إلى الجبهة، ثم قالت: سنة ولم يتحرك، يسهر إلى آخر الليل ويشرب الخمر، يحكي كلاماً... عيب أخواتك صغار يا عبدالله. ثم قالت: لم ينتقل إلى الجبهة... أتى بالجبهة إلينا... أسمع أختك نجوى كلاماً وهي تنشر الغسيل.

- لماذا يا أمي؟
- بدنا ناكل... بدنا ناكل.

***

- كف عن شكواك يا ولد.
- ولد!! من غطس رأسي في وعاء البول

نفخ قلبي كرة ورماها إلى مخالب القطة

لوّن جفني بهالة الاكتئاب

نسل خيوط جسدي جوارب

- أتحلم بصليب؟
- ما عدت أقوى على الحلم في هذه الساعة.
- لم يبق إلا صلبان معقوفة.

لكن!! لِمَ كل هذه المسامير؟ مسمار واحد يكفي لتثبيتي.

***

لأنها أمي يجب أن أصغي ولأنني ابنها تتكلم.

الحاجة انفصال، الصوت كرات ثلج تتدحرج في ضياء الدم لأنني لا أقوى على النظر إلى مياه عينيها أتكسر خلف بصري على ملامسة البلاط الوسخ.

قالت: يصطحب معه نساء... الجيران ينهشون لحمنا يا عبدالله، الناس لا ترحم.

تميل على الحاجز الحديدي وتسترجع جذعها
يقطف الكباد ليصنع منه منافض.

- ما رتبته؟
- رقيب
- رقيب!!
- نقيب
- نقيب!! نقيب أم رقيب؟
- لا أعرف
- رتبه من فوق أم من تحت؟
- من تحت كيف؟
- أقصد على ذراعه أم فوق كتفيه؟
- والله لا أعرف.

تركض إلى زاوية صمتها كأنما تتفقد ثوباً عتيقاً تعثر على الاهتراءات بصبر تتعثر وهي تلوك فضائل الشمس والنفتالين تدس أصابعها في فراغات الشبكة الحديدية: والله لا أعرف.

- كيف كيف يا أمي تؤجرين الغرفة لشخص لا تعرفينه؟
- بدنا ناكل

***

- أوضعونا في الاسطبل يا عبدالله؟
- لكن لماذا يتركون الباب مغلقاً؟

- أمطلوب أن نقاتل أم نموت؟
- لا فرق قتالنا في هذه الشروط موت مؤجل.
- الدولة دجاجة تبيض لهم ذهباً ولن يتركوها بلا نهر دم.
- تبقى دجاجة يا صبري دجاجة.
- ما تقصد يا عبدالله؟
- الخروج من الخم، نحتاج إلى تثوير كوبرنيقي في المجتمع.
- كيف؟
- نقتنع بالبرهان أن الشعب هو المركز.
- عطشان!
- اصبر أعتقد أنهم لن يقتلونا.
- أعرف يا أمي تريدون ثمن الخبز والله أعرف.

كومة قش وصلتها النار، انكمشت، انفجرت نار صوتها ألسنة لهب.

- لكن لم يعد يدفع الأجرة.

***

آن الآوان لترفعي صلاتك جنازاً على روح تفحّمت تسمعين غناءً أواخر الليل، ذاك صوتي تسمعين هينمة بكاء أوائل الفجر، ذلك صوتي لست ميتاً، على صوتك يطلع طيف أملي لا تبخلي بالغناء أمي الكريمة أمي المانحة حلمتها لأطفال الحي، تبخل عليّ بقبلة، قبلة لا ترشح من مصفاة الحديد.

فسر لي صبري، كيف يأتي الصفح؟ ساعة موته نسيت كل
نذالاته، طعم نعله في فمي وجبة يومية، ليالٍ تحت المطر
ولم يفتح لي الباب، نقوش حزامه على ظهري...

فسر لي يا صبري لماذا بكيت ساعة موته، نحتاج دوماً إلى سكين لنقطع بلا شفقة الوريد... الوريد نفسه الذي يمتص الدم والسم.

ما عدت بحاجة إلى هذه الأسلاك، اقطع الوريد، السم جنازة طويلة في هذه الأنفاق الملتوية.

الخبز احتلال، أمي فقدت الخبز والأمان، اقطع هذه الأسلاك التي تبدو زرقاء. بشفتيك مص وابصق في وعاء الحليب. ما من أحد سواك. اقطع...

لو يد، أي يد، يد لص، مجرم، عسكري خارج تواً من المرحاض. طفل ملطخ بالحبر... لو يد، أي يد تمتد بسرعة لتعقد أزرار قميص تلك المرأة لا أعرف كيف أغفو.

الرجل الجالس خلف الطاولة بكبرياء ينقف الحصى وينتظر طرطشة المياه... يا سيد هذا ليس بئراً... أتسمع؟ لكن أتفهم؟ هذا ليس بئراً... هذا فمي.

والعسكري الذي يرتدي بزة مدنية مثلنا على سبيل خلط الألبسة، يكور قبضتيه على الطاولة ويرمي جذعه إلى الخلف ليضحك منتشياً بالمياه الغازية... لا يهم مادام «كلٌ في فلك يسبحون».

نم أرجوك نم انتهت الحكاية، حكايتنا، نصنع أوطاناً لنطرد منها، نحتاج إلى عاهرات لننسى آلام أمهاتنا... نم يا عبدالله نم.

***

لأنها أمي يجب أن أصغي ولأنني ابنها تتكلم.

اكتشاف

رغم أني وحيد أبويَّ إلا أنها أختي، رغم أني لست أكثر من نطفة تقترب من بيضة إلا أنني أخجل، يسيل عرقي. تحمر وجنتاي. ترتعش أصابعي.

وفي العصر ساعة أراها على الشرفة المقابلة تحوك خيوط القصب الذهبية على مخمل أسود أو نبيذي، أتحوّل إلى مبخرة كاهن هندوسي.

رغم أني وحيد أبويَّ إلا أنها أختي، تحب المربى والبسكويت والنوم على كرسي الخيزران، ممدّدة ساقيها على طرف الحوض شجيرة الياسمين في الشرفة، كل صباح تقلّم أظفارها وتصبغها ببرنيق قرنفلي وتوزع ابتساماتها أكواب حليب لإفطار جيرانها ثم تدخل المطبخ وتغيب دقائق لتعود بطبق عليه فطائر جبنة ساخنة وكوب شاي، تجلس خلف الطاولة تمضغ لقمة وترشف رشفة، غير مكترثة لما يحيط بها من عيون ونوافذ فضولية تمسح شفتيها بمنديل ورقي تحمل الطبق الفارغ وتدخل ترتدي دوماً أثواباً طويلة، أو سماوية، ترفع شعرها بقوس معدني مذهب. ساعات ساعات تجلس خلف طاولتها في الشرفة تقرأ في كتبها وتكتب أشياء لا يعرفها أحد سواها.

إلا أن مؤخرتها بدأت تتفحم وأنا أحزن بصمت لأنني أسمع: الخياطات يشكين ضخامة مؤخرتها، هل رأيت مؤخرة منى؟؟ صار نصف ظهرها مؤخرة، لن تستطيع ارتداء البنطال.

كان الصوت أنفذ من الصورة، وبدأت أتغيب عن الشرفة، في يوم من شهر تموز، لحظة دخلت البيت عائداً من ورشة صناعة الأحذية، رأيتها أمامي جالسة في زاوية المقعد الطويل تحضن بكفيها فنجان قهوة، وقفت أمامها ومددت يدي المتسخة، فوقفت ولما رأيت قبة صدرها شعرت بالنعاس، مالت عليّ وقبلتني من رأسي وقفت أمي ووضعت يدها على كتفي «أختك منى ستأخذك معها إلى السينما».

- «السينما!!»

- «الفيلم عن رواية الأحمر والأسود وهي مقررة في منهاجنا»

لم أفهم شيئاً لأنني لم أسمع شيئاً، كنت أنظر إلى حركة شفتيها المدهونتين بصباغ حار وأمي تنتظر موافقتي، قالت لمنى: «عن إذنك» وشدتني من قميصي إلى الحمّام وأنا لم أقاوم.

كل شيء جاهز سلفاً، ملابسي النظيفة مطوية على السرير والمياه الساخنة في الحمّام، لم أشعر بانسحاب ملابسي، عارياً صرت وأمي خلفي تفرك رأسي بالصابون وتدلك جسمي بالليفة، حمّام يذكر بحمّامات قبل الزواج التي سأراها فيما بعد في عتمة قاعات السينما وأنا أقشر الفستق.

انتبهت وأنا في الطريق أنّ أختي ترتدي بنطالاً، بنطالاً مثلنا نحن

«الشبان» لكن ما من أفلام جميلة رغم أني لم أعرف ما تعني أفلام جميلة لكني قصدت أن نبقى في الشارع ونمضي إلى حديقة.

«خذ» دست في يدي ورقة خمس ليرات «ستشتري فستق وبزر» وسنأكل بوظة بشوكولا، ولحظة سمعت شوكولا انتقلت من جانبها إلى أمامها كأنما لأطالبها أن تكرر نطقها وأنا أنظر إلى شفتيها المتجاهلتين طلبي، لكنها لم تنطق حرفاً، عدت إلى قربها، أردت الإمساك بيدها لكنني لم أستطع، وبدأت أسمع «يا إلهي» ما هذه البطارية تكفي لتشغيل معمل «تغني عن صوبيا في الشتاء».

بدأ جسدي، جسدي الذي غسلته أمي بالماء الساخن والصابون، يتحول إلى أوراق خضراء «فرشتها منها وفيها» بدأت أوراقي تلتف بعضها حول بعض، شعرت أنها تسرق مني، حاولت الإمساك بيدها إلا أنها ابتعدت عني تاركة مسافة لمرور ثالث وكل عابر يتفحصها من الأمام والخلف، ورقة نقدية بين يدي صيرفي، مثل جرو أدور حولها ستارة تحجب عريها وهي تبعدني بيدها لتترك النافذة التي يأتي منها البصر والكلام «تملأ الحضن».

سقطت من يدي ورقة الخمس ليرات، سقطت أشياء أخرى لا مرئية، لم أنظر إلى نفسي في المرآة لأتأكد، إلا أنني واثق باكتمال تحولي إلى خسة.

لكن نظرت إليها متوقعاً رؤية ملامح غضب قمطرير ونفثات أفعى لأشحذ حقدي المبكر، يا خجلي «أختي» كانت تضحك.

خوف

لحظة سمعت دقات على الباب، ارتجفت أشياء داخلي، كنت ممدداً على السرير أتجشأ رائحة البيض المقلي الذي أكلته قبل غفوة القيلولة حتى أني لم أشرب الشاي نزعت ملابسي وارتديت سروال المنامة وغفوت مقنعاً نفسي أنّ شرب الشاي بعد اليقظة سيكون ألذ.

مجرد دقات على الباب بتلك اليد التي تقبض على كرة حديدية، حاولت النهوض لكنني لم أقوَ، وزعت عيني على الجدران مودعاً عالم الأشياء المحيطة بي، أشياؤنا خفيفة والريح قوية.

لوحة «ماسح الأحذية» لـ لؤي كيالي في نسخة اقتطعتها من غلاف مجلة، صورة لأمي في ساحة الدار ذراعاها الملطختان برب البندورة إلى الأعلى وهي تضحك، عندما كانت تضحك لتحرضنا على الضحك، أخي خلف متراس في بيروت يرفع فوهة البندقية إلى الأعلى وينظر إلى البعيد، المتراس الذي سيختفي بعد عام بالتمام لتصل رشقات الرصاص إلى صدره.

أشياء ثقّلت جسدي بقفص رصاصي وثبّتني فوق السرير،

الطاولة، كوب الشاي النظيف والفارغ، الكتب التي اشتريتها ولم أقرأها بعد، أشرطة أغاني ناظم الغزالي وفيروز.

لم أعرف كيف امتلأت حينها الغرفة برائحة البطيخ الفاسد، نهضت، وضعت قدمي الحافيتين على البلاط، تذكرت ابراهيم الذي سيأتي في الثامنة لنذهب معاً لحضور فيلم «Z» للمرة الثالثة، مناسبة نستغلها ونحن عائدان في الطريق لنناقش حول الأنظمة الاستثنائية، الحليب السوفياتي وضع الفاشيات الجديدة، أهمية التحالفات. تذكرت رسائل هالة، أسرعت إلى حقيبتي لأخفيها، لن يترددوا لحظة في استدعائها، ما الذي يدفعني لكتابة رسائل إلى فتاة أعيش معها في المدينة نفسها وأراها كل أسبوع؟

لن أكون سبباً في إيذائها، فكرت أن أشعل سيجارة وأدخنها بهدوء، لكن طرقات الكرة المعدنية عادت أشد قوة وتواتراً لم أجد مكاناً أضع فيه الرسائل، الغرفة عارية: سرير، طاولة، كرسي. أبقيت الرسائل في يدي ومضيت حافياً إلى الباب، توقفت لحظة لأسترد أنفاسي، عاد الطرق عنيفاً، أمسكت إصبع القفل وشددتها على مهل رأيته ينفتح ويندفع نحوي «السلام عليكم» «وعليكم السلام» رجل ريفي يحمل سلة، غطى فوهتها بمنديل نسائي مزهّر، ظهر وجهه نافذة منورة بين ستارتي كوفيته البيضاء، سعل ليطرد ارتباكه وأنا أسندت رأسي إلى زاوية الباب.

«أسأل عن الأستاذ أسامة شاكر؟»

«لم أسمع بالاسم يا عم تفضل لنشرب الشاي»

كأنه لم يسمع بقية العبارة، ربما لأنني لم أقلها، استدار ومضى إلى أبواب البيوت المغلقة وأنا أيضاً أغلقت الباب وهرعت إلى سريري لأبلل وسادته بشيء يشبه الماء الفاتر.

ثمن الرؤية

أسندت ظهري إلى الجدار المبني من مزيج الوحل والتبن وانتظرت، ظهيرة آب. الشمس فوقي وتحت قدمي حصى وأعشاب جافة، وروث خيول طازج، زجاج مطحون، صفائح معدنية صدئة تاريخ سريع الذوبان، متعجل بالاختفاء. رميت المنديل المتسخ وأخرجت واحداً نظيفاً، طويته ومررت زاويته على طرفي الرموش، المشهد هو هو، عبورات متواصلة لقطعان أغنام وعربات محملة بالشعير والتبن، نساء تحت العباءات السوداء، أطفال يكتشفون أرضهم والناس، تجار سمن وألبان، مخاتير القرى القريبة، وجوه وجوه تخرج تواً من مقابر قديمة آشورية آرامية حورية نقوش على الوجوه، نقوش على الأكف، على الأذرعة التي تنكشف بغتةً للبحث عن أسباب لسعة مفاجئة. انتظرت، الشمس فوقي وتحت قدمي، عيون لا ترى، آتية من أسفار الغبار الموسمي إلى جحر الأمل، الأمل الرخيص الأمل الغالي.

«أنا أرى، تعال والصق عينيك بالكوة أو اذهب واذبح البطيخة لنأكلها».

«سأذهب لكن حدثني بما ترى»

«لا شيء أقدمه الساعة لتناغم الأشياء أمام عيني... لا شيء»

أصفح عن الرجل الذي شدني من كتفي إلى غرفة ضيقة معتمة وصرخ في وجهي: ستأكل الخراء حتى تشبع ستبقى هنا حتى تنسى حليب أمك يا حيوان اصفح، عن الرجل الآخر الذي حدثته عن تفاؤلي التاريخي فقال «عيش يا كديش» وهرب مثل جرو أمامي رغم أن يدي كانتا في جيب بنطالي أو في الأساور.

أنا المسكون بالانتظارات لا أستطيع إغلاق الكوة، الكوة هي امتداد للعقل- القلب، القلب- العقل. ما أفعل الساعة إن أتت مريم ولا بساط أحمر أو فرشة تحت قدميها، صعوداً إلى قلبي المفتوح منذ دهر

- تعال.

جئته، مسحت عيني للمرة الأخيرة ورميت المنديل.

دخل دخلت.

إلا أنها عجوز، عجوز بلا ساقين، اقتربت منها، ولما أشارت ركعت، لم أنظر طويلاً إلى وجهها إلا أنها عجوز بلا عينين، بلا أنف مدت يديها فرأيت الوشم الأزرق نقاطاً لا نهائية بأشكال معينات ودوائر تأخذ هيئة نصل، حضنت رأسي وشدته، عجوز ذات لسان دقيق أحمر قان، رجف، ارتجفت، لسان أفعى، نترت رأسي إلى الخلف، شدته وقربت إبهامها وسبابتها، قلبت جفني، ما عدت أرى لكنني شممت، شممت رائحة لبن فاسد وتبغ مخزن، بطرف لسانها سحبت الغبار والقش والدموع، وضعتها على ورقة انتزعتها برعونة من دفتر

شام، أعادت قلب جفني، دون أن أرى، مددت يدي وتحسست جيب بنطالي، أخرجت ورقة الخمس ليرات ووضعتها على طبق أمامها.

خرجت لأرى صفاً من الأسنان الذهبية يهتز بلا احتشام وشعرت بجسدي بستاناً وسكيناً تقطع خياره وبندورته، فليفلته وبقدونسه ونعناعه وترميها جميعاً في أحواض البرمنغنات البنفسجية إعداداً لطبق سلطة يستدرج لعاب الجوع إلى آنية الشبع.

يوم... كل يوم

شدَّ اللحاف ليغطي رأسه مستمتعاً بدفء جريان الدم المحمى بجزة الصوف المنجدة والأطلس الناعم الحنون، كشفت النترة القوية اللحاف حتى رسغي قدميه، مكوراً مثل جنين، فتح عينيه ببطء محاولاً تفسير عالم الأشياء الذي أحاط به بغتةً، ليست أمه، أباه، أخته، أخويه، وجه هو نسيج ممزق رُتق على عجل.

- انهض... فنجان قهوة.

سيذكر القهوة دائماً، فيروز... نجاة الجم... منير الأحمد... الشرفات المشمسة... الشرفات المورقة... بائع التوت... ضحكات طالبات الثاني الثانوي... مدائح نهارية بصوت يسري تحت الجلد.

قهوتها، كعك اللوز، جوز الهند المبشور المحلى بالسكر والمعطر بماء الورد، الدعاء الذي ليس شيئاً وكل ساعة يندلق كوب حليب يبدد لون الحبر. أشياء تيبست، روث بقر في منتصف الشارع.

ذات يوم ماطر، شاب ذو كنزة صوف نبيذية وبنطال كحلي، يُسحب كورقة كربون من بين صفحتين، رغم وحدته وجد أخيراً من يوقظه.

لم ينبه أياً من الجيران الذين اكتفوا بفتح أبواب شققهم ليتابعوا صعود الرجال الستة بدهشة المتفرجين على أفلام الرعب إلى الطابق الرابع وبقوا في أماكنهم ليتأكدوا ربما من القبض عليه. تابعوا نزوله بنظرات حزينة وهو لم ينس وداعهم بعينيه كذلك لم ينس حمل أشيائه اليومية كأنه ذاهب إلى بيت صديق أو موعد.

كتاب «الظاهرة الستالينية»، دفتر بلوك الشهباء الذي يسجل عليه الملاحظات، صور مختارة لمدن من الشرق الأقصى، صحيفة السفير المطوية على عمودي حازم صاغية وروجيه نبعة، محفظة جلدية بلون العسل، قلم حبر، البطاقة الشخصية، علبة التبغ، قداحة. الشوارع تتراجع... أشجار الزنزلخت، بائع السحلب، عمال السكك الحديدية، طلاب المدارس، شرطي المرور، إعلانات العروض السينمائية.

طاولة كبيرة، كأنها مشرحة أو مائدة العشاء الأخير، أوراق مضغوطة بمكعب رخامي، مصنفات خضراء، أقلام منتصبة على هيئة بطاريات صواريخ، علبة مناديل ورقية يخرج منها حبل متصل من المناديل البيضاء- الزهرية- السماوية، منفضة كبيرة من البلور بحجم طنجرة أو وعاء مرق دجاج، مروحة عريضة من أغصان نباتات أمازونية.

مدّ له ريشة طاووس كبيرة اقتلعها من جذع شجرة صنوبر يابس، لم يأخذها، رفع رأسه وقرأ على الحائط عبارة مكتوبة بماء الذهب «المسيحيون الأذكياء يبرئون روما ويجرّمون اليهود»

روما- أورشليم، الحاضر- الماضي.

- امسك!! اهتزت أمامه ألوان ريشة الطاووس.
- لماذا؟
- لتوقع.
- على ماذا؟ وقع، وقّع، وقع فيه، وقع به، نزلت به وقعة...
- اجلس!!

التفت ليتأكد من وجود الكرسي خلفه، رأى هوة تطل على ساحة، مدرسة، ثكنة، إسطبل، كنيسة، سجن...

هناك تجمع أعمامُه العشرون وعماته السبع، أخواله الثلاثون وخالاته التسع، يرفعون قبضاتهم المشدودة على ريش طاووس...

أبوه واقف في المقدمة، صامت، رأسه منحن على صدره، كأنه يصلي، أو ميت أُخرج من القبر تواً. وقربه أمه واقفة حافية القدمين بثوب أسود طويل، شعرها أبيض، لم يكن في يدها ريشة، سبحة بيضاء طويلة... طويلة، عند قدميها سكين يلمع نصلها، عليها أثر أوراق البقدونس. ابن عمه في المؤخرة يعزف على «الترومبت» لحناً له رائحة الكزبرة. استدار، حرك يده برعونة، انقرفت ريشة الطاووس المتطاولة خارج المائدة- المشرحة، قدم له بسرعة ريشة أخرى.

- لا تخف... ما هي إلا أوراق استلام حاجاتك.
- حاجاتي!! نسيت... الوقت كافٍ لأنسى أشياء كثيرة.
- أولئك. أشار بسبابته إلى الخلف.

التفت مرة أخرى، رآهم في أماكنهم ورأى وجه أمه كأنه يراه للمرة

الأولى وابتسامة خاله المشربة بالفرح. سمع صوتاً: «يمكننا الانتهاء من الكَلَب دون الانتهاء من الكِلاب...»

لحظ مد اليم يم م م م كننا. يم م م م كننا.

مال إلى الأمام، احتضن رأسه بكفيه.

«كل صباح يأتي، في موعد بائع الحليب وعامل التنظيفات، ليقول له الكلام نفسه، يهمس باسم عدد جديد ويجلس قرب الطاولة ليشرب كأس يانسون ويتذكر الحلمة التي قرطها كفستقة...

كل شيء يجف كبقعة رطبة على كم القميص، وهو ينتظر مريم تتمدد قربه على السرير وتنقي دمه كحفنة عدس، تضغط بإصبعها على شفته وتقول: ابتسم... آن الأوان.

لكن القلب إبريق ماء نسيه صاحبه فوق لهيب الغاز الأزرق.

- ما بك نمت آتي لك ببطانية.

فرك صدغيه بأصابعه الدبقة وأبقى بصره على الأرض.

«مريم لن تعود... ستتفتّت، مومياء يقترح الحارس تحطيم تابوتها ليتأكد من جلدها بأصابعه.

إلى جانب الباب يبقى واقفاً، خادماً ملكياً بلا قفازات بيضاء وابتسامة سخية وانحناءة عبد، إلى جانب الباب يبقى، المعتاد على الانتظارات، ينفتح الباب ويظهر أخيراً رجل له هيئة قرصان ويقول كأنه يتجشأ لحم الإوز، ماذا تفعل هنا؟

لن ينتظر الإجابة، وهو لا يملك إجابة عن هذا السؤال المفاجئ،

انقلع، ويشير بذراعه إلى الفراغ، لكن ظهره الذي اعتاد الرطوبة، الجدار لا يستجيب، انقلع...».

- مستحيل... تكذب... أنت تكذب ما عدت تستطيع إعادة كل شيء، اللص لا يصير محسناً، اللص...

رفع رأسه، رأى على وجه الرجل ابتسامة وديعة.

- سيعود كل شيء... حتى...

توقف عن المتابعة، تحفزت كل طاقة حواسه لاستقبال الآتي.

- حتى مريم.

لم ينتبه لصوته الذي لطخ الجدار المقابل بنثار الدم.

- مستحيل... مستحيل. ضاعت الأشياء كلها ومريم أيضاً.

التوترات تترك على صدره خثرات دم جافة. رغيف خبز ملطخ برب البندورة ونعناع يابس وكمون، لوحة... مشهد هو مشهد الرعب. سيجد يوماً من يقرؤه كلوحة تشكيلية ومن يأكله أيضاً.

أمسك الرجل بعبوة عطر الليمون، نزع غطاءها وضغط بإبهامه لإزالة رائحة البول التي بدأت تخرج من المكان، دخل ثلاثة رجال بثياب بيضاء، حلاق بيده مقص كبير ومشط أسود، قصاب يحمل سكيناً ومسنّاً، طبيب يرفع محقنة كبيرة ينّز من إبرتها سائل أخضر كأنه شراب النعناع.

- أسمع نحيب امرأة على قبري...

ضغط بإصبعيه على صدغيه... لا أحد يبكي على القبر سوى الأم أو الحبيبة أليس كذلك؟

- أمك.
- امرأة.
- أمك.
- أمي ماتت... أمي ماتت من زمن.
- من إذاً؟
- وحبيبتي ضاعت...
- لم يبق من يبكيك... هأ... هأ... هأ... هأ.
- لا... البقر يبكيني البقر، بقرنيه يحك صدر القبر، بأظلافه يمسح الغبار عن وجه ذاكرتي، أقراص روثه زينة الحياة الآخرة.

لا توزعوا الخبز على روحي، لا ترتدوا الحداد، لم أمت. لكن دعوا البقر يبكيني.

الغرفة على هيئة شفتين مصبوغتين بالفليفلة الحمراء، تهتز كأنها تضحك، تنغلق لتمضغ شيئاً لدناً.

انقلاب

- انقلاب!! هتف ابن عمتي.

كنا نجلس كالعادة حول جهاز التلفزيون نتابع المسلسل ونفصفص بزر البطيخ المحمّص الذي وضعته أمي أمامنا في صحون صغيرة لحظة انقطع البث وامتلأت الشاشة بغبار رمادي.

كانت أمي قد جهزت منديلها لتبكي، وأختي لتترصد كلمات الحب، وأخي لأنه لم يجد شيئاً آخر يفعله وابن عمتي الذي جاء لزيارتنا، وأنا مستقبله في الصالة الوحيدة. أبي بقي كالعادة في الشرفة يدخن نارجيلته برواق مطارداً صور ماضيه الفاتنة على خيول رغائبه الحارة.

لكن هل ابن عمتي هو من هتف؟

الحقيقة إن أخي هو من هتف مبتلعاً قبضة بزر البطيخ المحمّص على عجل، وأقول ابن عمتي لأنه غادر البلاد منذ سنوات إلى استراليا ليعمل ويتابع دراسته، وحينما ستركل الأحذية الثقيلة وأعقاب البنادق باب بيت أمه ويُفتح الباب أو ينكسر لن تجد إلا سريراً خالياً منذ

سنوات وأيقونات صغيرة تشتعل لسلامة روحه رابضة بخشوع على الطاولة المجاورة، وصورة تحت بياض تمثال أبي فراس الحمداني وأمام بوابة القلعة.

وأبي مات منذ زمان وأنا دفنته بيدي وبكيت في زاوية مظلمة كيلا يرى دموعي، دموع الرجل، أحد. كذلك أمي لكنني لم أستطع المشاركة في دفنها لأنها ماتت في موسم الكرز، اكتفيت بتذكر آخر كلمة قالتها لي وهي تلوح من الشرفة: لا تتأخر لن أنام حتى تعود.

أنا لم أعد، وهي بقيت مستيقظة حتى تهرأت أعصابها وقلبها كما تهرأت أصابع يديها قبلاً.

حاولت البكاء لكنني لم أقو، فاكتفيت بتحطيم الساعة كيلا يجرح الأقدام الحافية التي اقتربت لعزائي ومن يومها أعيش بدون ساعة وبدون كرز كذلك.

ولكن هناك أختي، أختي التي كانت تبكي لحظة يغير أي منا نبرة صوته أثناء مخاطبتها، لم تُضرب يوماً لأنها كما كل البشر لا تستحق الضرب، خصوصاً بعد أن علمنا جميعاً أنّ الله خلقنا على صورته، ولأنها سرعان ما تفيض بمياهها وتبدأ بالارتعاش طاردة كل حصى ورمل ذنوبها على مخمل وسادتها. ويوم فرضت عليها الخيارات: مهاجرين- أنصار. لم تنطق بكلمة واضحة، إلا أنها اكتفت بالإعلان عن حب عميق يغفو داخلها لأرض الحبشة. لم ترسل إليّ صوراً ولا

حتى رسالة لأتيقن من طابعها أنها هناك إلا أنني أتنشق رائحة البخور ساعة أتذكرها.

يبقى أخي، لم يمت ولم يهاجر. لا بد من مخاطرة ما، نسيان أنّ للحيطان آذاناً، أنّ خلف ابتسامة الرجل الكحلي سلاسل لن تنفك عن المعاصم، أنّ في جوار أحواض الزهور الممتدة على طول الشارع مبنى لا يتقيأ من يبتلعهم إلا بمحقنة المياه الدافئة وزيت الخروع، أنّ جارتنا الفاتنة التقية عاهرة من الثامنة مساءً حتى الثانية بعد منتصف الليل...

- أنا ضد الانقلاب من حيث المبدأ، يبقى الشعب خارج عملية التغيير مهمشاً ومروضاً على قبول الواقع.
- أنا كذلك، لكن لن نخسر شيئاً ولن نصل إلى وضع أسوأ مما نحن فيه.
- من سيكون قائد الانقلاب؟
- ربما رئيس الأركان، أو رئيس إحدى الفرق...

العسكريون لن يجدوا أوضاعاً تخدم مصالحهم أفضل مما هو قائم.

- ربما هناك تضييق على نفوذهم.
- مادمنا نحلم، فليكن حلمنا خارج الثكنات.

صعب، الجيش أشد القوى تنظيماً في المجتمع.

- لكننا نحلم.
- حاجة بقى، ما عم إسمع شو عم تقول البطلة.

خرج الصوت حاداً من فم أختي، كنا قد نسينا أنفسنا وأعطينا ظهورنا للشاشة الرمادية، التفتنا دفعة واحدة لنرى دموع عفاف شعيب متجمدة وأسماء المصورين والفنيين تندفع بسرعة إلى الأعلى دون أن نستطيع مسحها.

لكن هل ما قاله ابن عمتي انقلاب أم قال مااا!.

الموؤدون

لأنك متسخ تفكر في الحمّام، مياه ساخنة، صابونة غار، ألبسة داخلية نظيفة، ملاسة الصابون، خرمشة الليفة. تتحسس لحمك الدبق الحامل لآثار الـ Grippe. الاسم الذي يشبه في كتابته العربية الغريب. تتذكر وقع الكلمة الثقيل على روحك لحظة ينقطع الحديث فور حضورك، مسافة للانفصال عن الكلب السلوقي المسترخي على السجادة وتجوال القطة السيامية بين المقاعد، غريب افهم هذا وحافظ عليه. بأصابعك تفقد متانة الأسوار وارتفاعها المناسب، تفقد كل الأشياء، الأضلاع التي تترك القلب معزولاً عن الضوء. لأنك متسخ تفكر في الحمّام، تغرز أصابعك في شعرك، تشعر بلزوجة الدهن لمعان أصابعك، الجلد الميت والأوساخ تحت الأظفار.

لن تدخله لتستلقي في الحوض الدافئ وتعلن بعد إغفاءة مشبعة بأوراق الغار «أوريكا... أوريكا» ولن تتواطأ مع أصابع جواريك وقوارير عطورهن لتموت بعدها تحت ضربات قباقيبهن. تعرف وحدتك، تدخل بمفردك وتخرج، لن تسمع حتى «نعيماً» التي كانت مكافأة لنظافة جسدك، يومها كنت تشعر أنك تقترب من الملائكة الذين، أو،

اللواتي ابتعدن عندما اقترب الفجر وزواره... تشعل سيجارة، تسحب نفساً وتطلق على عجل سعالاً مجروحاً، تفرك جمرتها بقاع علبة السردين التي تستخدمها كمنفضة. لست أحسن حالاً من أسماكها، محاصراً بالزيت ووخزات الفليفلة الحمراء، يد أليفة تشق الغطاء، فم جائع ينهي أحلام الدجاج بالطيران. ما من يد.

ذاك اليوم، لحظة دخل الرجل الكحلي الممر الطويل وسأل عن العدد، نظرت حولك وتيقنت من غيابه، تسرع إلى الحمّام وتطلب منه أن يقول «حاضر» لن تسمع الصوت المشبع باختناقات الربو ينطق نداء الكينونة، تكرر الطلب وهو ليس طلبك، تنتظر مسنداً ذراعك إلى باب الحديد الأسود. أنت الآن في مكان آخر. ربما زنزانة أخرى... تنظر إلى الرجل الكحلي الذي يدق حزمة المفاتيح على القبضان. «زحط بالبالوعة... ادخل وهاته».

هي لحظة مناسبة للتنبؤ، ساعة يفتقد الأمل ويتكثف عار الراهن، رغم أنه شباط إلا أنك تحافظ على حيويتك، تدق الباب الحديدي بقبضتك المضمومة، باباً كما كل باب تنتظر فرجته لتدخل هارباً من مطاردة، أو شعور مفاجئ بالخوف، كما هناك، هنا أيضاً، لن يفتح لك. الأماكن ضيقة لا تحتمل الهتاف «شهاب».

ينبجس الصوت أخيراً «اتركوني... أريد أن أموت».

تراه، ممدداً على الأرض، ضاغطاً الباب بظهره دافعاً قدميه إلى الحائط القريب وغطاء علبة المربى الملطخ بالدم مرمي قرب كفه.

تجتمعون، تتحرّرون من خوفكم لتحرّروه من موته، وهو شكل آخر من أشكال موتكم، تطوقونه، تسحبونه بحنان قابلةٍ من الرحم، الرحم الباردة، القذر، الملوث بالبول والدم والمني... الرحم اللانهائية حيث تخرجون كل يوم لحظة تتأكدون في الصباح أنتم أحياء. يختلج مثل سمكة وينشج «اتركوني أموت...» كأنه يكشف عن الخيار الغافي داخل كل منكم. أردتم صمته، أردتم إيقاف النداء الآتي من الأعماق المحجبة بغلالات الأمل. تحاصرون ضماداته وارتعاشات شفتيه، تحدثونه عن الحياة بشفاه مزمومة. وبشير أيضاً سيذكره، إنه حفيد عمر وخالد وصلاح الدين وسيطلب الصمت للإصغاء إلى صليل سيوف القادسية. حطين. عين جالوت... حينها تنفرج شفتاه كل يوم أطارد الموت، شيء ما، أشبّهه بغيمة سوداء تحاصر قلبي. تخجل من عينيه المبللتين ترفع بصرك إلى التقويم الذي صنعته على ورق علبة حلوى ١٢ شباط*٨.

لأنك متسخ تفكر في الحمّام. تطفئ السيجارة بضغطة من إصبعك وترفع علبة السردين عن الأغطية الثقيلة. الجميع غارق في النوم نسمة باردة تعبر كسر زجاج النافذة البعيدة. القططة تخلع احتشامها بصرخات السفاد، الجرذان تتابع سرقاتها الملوثة بالأمراض والتقزز. الممر الطويل يستقبل أنفاس النائمين... شباط برد هناك. برد هنا.

إسماعيل بلّل ألبسته بالكاز وقرب عود الثقاب من الجسد-الشعلة، في ذاك الحيز المغلق دوماً، حيث ينبت للبشر زغب، تحلمون

بالطيران، طيران غامض أحياناً، لن يمهلكم الصباح، لحظة ترفعون الأغطية لتجدوا الفرشات ممتلئة بالريش، تتبادلون النظرات بعيون تلمع بماء الأحلام، تحدقون إلى عريكم الوردي، حينها لا بد من ضحكة، ضحكة ما تطارد أشباح الدمار ولن تطفئه، لأنه انطفأ، لن تمد أصابعك المرتعشة لتتحسس لحمه المحروق، في لحظات لا بد من الصمت، ابتعاد البصر إلى الجدران حيث الأيام تحفر بمسمار ١١ شباط*٨. للحمّام رائحة الموت. في أيام... أيام أخرى، كان اللهو خروجاً عن اختناقات العادة، تدخل الحمّام وتترك بابه مفتوحاً تسمع من المسجل الرابض في الغرفة البعيدة عزف منير بشير، تقف طويلاً تحت دفقات المياه، تغمض عينيك لتسير معها تحت المطر الذي يشبه عصير البرتقال. في الطريق الخالي تنغلق حواسك ولن تسمع حتى «بخاطرك» التي قالتها، ومضت راكضة في الزقاق المعتم حيث بيتها. بعد فوات الأوان، كما دوماً، تكتشف أهمية المظلة لعاشقين قررا السير في يوم ماطر. بأصابع مرتجفة تتحسس جسدك كأنه جسدها، تمرر أصابعك فوق الصدر والحلمتين، البطن والسرة، تحزك، رعشة، تميل إلى الأمام كأنك أصبت بطعنة مباغتة وتبكي مطالباً بصوت يشبه الدعاء «تحطيم المرايا» الذاكرة... أتنفع الذاكرة في جعل المكان أليفاً؟ بين فرجة فخذيها العاريين، تخاف الماء الساخن وحرقة الصابون رغوة كثيفة على العينين وأنت لا تقايض الرؤية «حبيبي أغمض عينيك...» تغمضهما وتفتحهما على الاحتراقات «عيوني... عيوني تحرقني» فوق

رأسك تنطلق طاسات المياه الساخنة، حينها لا بد أن تستدير وتدفن رأسك في مقبرة اللحم الدافئ، لحمها. مبكراً، تعرف قدسية هذا المكان، تقف عارياً منتظراً دورك، بنفس مقطوع تسمع قرقعة الطاسة، انسكاب المياه، احتكاك الليفة، اللهاث المعذب، سعال التوجع. بالداخل المعتم أشياء تموت تحت رغوة الصابون البيضاء، لكنك لا تريد الموت. بل ماءً ساخناً وصابونة غار فقط، ترفع الأغطية الثقيلة وتخرج مع «غريبك» تحمل المنشفة والألبسة الداخلية النظيفة... تدخل، تخلع منامتك الدبقة وألبستك الداخلية وتعلقها على المسمار، تمسك صابونة زيت بذور القطن وتفتح الصنبور البارد على آخره...

من داخلك تتصاعد صرخة... تحاول حبسها لأنك لا تعرف كيف ستخرج نباح كلب... عواء ذئب، مواء قطة، ترفع رأسك وترى كوة حفرت تواً في السقف الكالح وشعاع أبيض يرتمي كطفل ملهوف على صدرك. تنسى الحجرة التي شجّت جبينك وخيوط الدم على وجهك، لن تفكر من سبق الضوء أو الحجرة؟ تستسلم كعذراء لمياه اللذة. لأنك مجروح تفكر في الضماد.

أبخرة الزئبق

ذكرى

إلى الصديق رضا حداد

ركعت على قدميها الحافيتين، رفعتهما، مسحت بطنهما بكفي، وشددت عليهما الجورب الأبيض إلى ما تحت الركبتين ونقرت بإصبعي كرتيه الصوفيتين الملونتين بالأحمر والأزرق، رفعتني لأرى ضحكة بيضاء تبزغ من فمها الصغير، مسدت ثوبها الوردي القصير «لحظة» نهضت مهرولاً إلى المطبخ لأحضر حذاءها الأبيض الذي أبقيته هناك في المساء ليجف صباغه.

أخرجت الأنشوطتين الحمراوين وعقدتهما على طرفي جديلتيها. استيقظت باكراً كشفت الغطاء ومضيت إلى المطبخ، أعددت ركوة قهوة وخرجت إلى الشرفة.

لا أعرف ما دوافعي للاستماع لـ«أنت عمري» في ساعات الصباح الأولى؟ أبقيت الصوت خافتاً كما عمري أيضاً.

لا شيء أمامي يستحق التأمل، ساحة واسعة جعلها متعهدو البناء

مقبرة لنفاياتهم أكوام حصى، حجارة، كلس... وأكمل عليها الزبالون بالقشور... قشور البطيخ والتفاح، عيدان نعناع، ملوخية... علب السمنة... وهناك الأولاد، فسحوا في وسطها ملعباً لكرة القدم.

البناء المحاذي رابض على صمته، من قال العمارة موسيقى متجمدة. موسيقى الجوارب المتدلية، النوافذ المغلقة على أنفاسها، المداخن، حبال الباذنجان المقدّد والفليفلة... باقات النعناع، أطباق عصير البندورة موسيقى الغسيل الملون، الستائر الكحلية عسلية وياسمين.

لكن، كل شيء ساكن.

صورة الأبيض والأسود رغم انتشار الصور الملونة، متباعدان كأننا نبقي مسافة لظهور تمثال البحتري... لماذا لم أقترب؟ لماذا لم أقترب...؟ ظهرنا كحارسين للتمثال. هي بتنورتها الكحلية الطويلة وقميصها الأبيض الذي يغطي كمّاه معصميها، تشد بقسوة على حقيبتها الجلدية التي تحجب حوضها. وأنا ببنطالي البني وقميصي العسلي لم أعرف أين أضع كفي فشددت ذراعي إلى الخلف لأقف عسكرياً أمام ضابطه المتلهي ببرد أظفاره. لماذا الصورة؟ لنقول بعدها، كنا هناك في نيسان ٧٧، أكلنا لوزاً أخضر مملحاً، مشينا طويلاً لأننا لم نستطع الجلوس على المقاعد المبللة بأمطار الليل... وأننا كنا حبيبين أيضاً.

أعددت لليلى كوب حليب وبيضة مسلوقة، جلست قربها أتابع ارتشافها الحنون وازدرادها المخنوق.

احتُجز ضوء القمر على تخوم الرحم، جفَّت المناديل، ليلى تتشكَّل، القمر غفا وليلى تتثاءب.

- ليلى.
- نوار... لتكن إشراقاً كفانا غماً.
- لتكن!! ليس بأيدينا، ما هي مصباح لنشعله ونطفئه.
- دعنا ننسى.
- دعينا نتذكر.

كان الحوار على السرير، السرير الذي أنام عليه وحيداً منذ عامين وتركته قبل نصف ساعة لأخرج إلى الشرفة. توجّعت هالة، المدينة محاصرة، أقصد مطوقة بألوية الفرقة الثالثة، والحرب كانت حرب شوارع، أو حرباً في الشوارع، أو حرباً على الشوارع. الطبيبة البلغارية التي تابعت حمل هالة غابت فجأة مع زوجها الطبيب العربي إجازةً في صوفيا. في الشهر الأخير ذهبت إلى قابلة قانونية واتفقت معها حول الإشراف على الولادة. لم تأت أمي، لم تأت أمها، لكن أتت ليلى.

«ولادتها ميسرة» قالت القابلة وغابت.

حملت ليلى إلى المغسلة، غسلت يديها وفمها، الكأس والطبق.

- حان الوقت. وشددتها إلى صدري. فتحت الباب وخرجنا، مشينا على الرصيف الموازي لثكنة المهلب.
- ماذا ستقولين للماما؟
- لن أقول شيئاً.

- لا تبكي أمامها.
- لن أبكي.
- إن أعطتك شوكولا خذيها... وقولي شكراً.
- سأقول شكراً.

خفق قلبي بشدة، شعرت بضغط على رئتي، ما الذي أقوله؟ كأنني أتحدث عن امرأة... أي امرأة. هي هالة التي أعطت معنىً لكل صباحات الحصار، المهفهفة على الأرصفة. المنطلقة في سهرات الأصدقاء، المشاكسة حتى استفزاز الروح وتحريرها.

- أربع سنوات لا أكثر، أربع سنوات تقضى عادة في الخليج أو الخدمة الإلزامية. لم أذهب إليهم... أتوا وأخذوني كما أخذوا المئات، قليلاً من الاحتمال...

الآن لا استطيع القول احتملي. لكن... قلت لك دوماً ما من خيارات أمامنا: أن نموت قهراً أو نعيش قهراً.

- نعيش مثل كل الناس.
- إننا نعيش مثلهم.
- لا!!
- تأكدي يا هالة، حياتنا لا تختلف... تأكدي، لا تتركيني في هذه المحنة، هنا نجاهد للخروج عن طاعة السكينة وتفتيت الروح... ما من خيارات كبيرة. نضع قرفة مع الشاي، نغرف المرق الساخن بأصابعنا، نرفع ساقاً لنتبول كما الكلاب،

نصوم أسبوعاً كاملاً، نحفر أسماءنا على الجدران... تصوري على الجدران...

- الموجود لا يمكن أن يظهر لنا خيراً من هذا الظهور.
- بلى... يمكن... يمكن.
- لا.
- أأذهب إلى الشيخ من الفجر؟ أأقبل يديه ورأسه؟؟ أأطلب المغفرة عن آثامي؟ لم أفعل شيئاً، ليس أكثر من عصيان سلمي على آلهة الأرض. إسمعيني من يريد الحرية يجب أن يتعلم صنعها.
- صه... رفعت سبابتها إلى شفتيها المتلاصقتين.
- من سيقول لي بعدك تصبح على خير لأثق بالصباح القادم.

أفلتت ليلى يدي وركضت أمامي على الرصيف الطويل، فراشةً، هكذا رأيتها بثوبها الوردي وجوربها الأبيض وجديلتها.

أردت الركض خلفها لكني بقيت أمشي الهوينا. التفتت ومدت ذراعيها تجاهي.

- تعال... بابا... تعال نركض.

ركضت خلفها، أمامها، استـدرت لأستقبلها بذراعي المفتوحتين...

- أتعبت؟ سأحملك.
- بعيد...

- لا دقائق...

أردت القول ماما بعيدة، المكان قريب، مررنا تحت جسر القطار وسرت وهي على صدري بمحاذاة سور الحديقة.

كنا معاً نمشي بمحاذاة سور المقبرة.

- لماذا لا تتكلم؟
- عن ماذا؟
- عن أي شيء.
- لا أعرف أحياناً ينتهي الكلام.
- الكلام لا ينتهي.
- لماذا سحبت يدك من يدي؟
- أكفي ستلهمك الكلام؟ وفاض صوتها بضحكة غير محتشمة.
- هل لك أحد هنا؟
- ألا ترى الصلبان؟ هذه مقابر للمسيحيين.
- لم أنتبه؟ لكن القبر هو القبر. فكرة الجندي المجهول ضرورية، أليس كذلك للصلاة أو البكاء على الغائبين... موجع غياب قبر الموتى. شيء رمزي لكنه ضروري.
- سمعت أنهم سينقلون المقابر إلى خارج المدينة.
- قاسية... لم أفكر في عبادة الموتى، لكن فكرة المشروع قاسية.

توقفت وأسندت ظهرها إلى سور المقبرة، سحبت قدميها من حذائها.

- الحب يحتاج إلى أحذية... وأقدام، لقد مشينا طويلاً.
- لو نطلب ماءً من حارس المقبرة... تعالي.

لم نر الحارس، طفلة يتدلى من شحمتي أذنيها المثقوبتين خيطان بلون العسل. قدمت لنا ماءً وكرسيين. جلسنا، بدأت أستنشق رائحة الطحالب والموت.

- سأعد الشاي. قالت ابنة حارس المقبرة.
- لا... شكراً... سنذهب ونهضنا.

دخلنا الكافتيريا، جلست على كرسي قرب النافذة وأجلست ليلى أمامي، التي أرخت ظهرها بوقار سيدة ذات خبرة وأسندت مرفقيها إلى ذراعيه، وزعت بصري بينها وبين النافذة حيث الشارع الضيق مكتظ بالسيارات والباعة الجوالين والناس.

أتت... أتت يوماً ووقفت في ذاك المكان وفي تلك الزاوية. شعرت بازدياد وزنها وتوترها.

آكل كثيراً.

- صحتين.
- أتسخر؟
- لا... الإفراط في الطعام يعبر أحياناً عن حالة توتر نفسي.
- لا أعرف... وأدخن كذلك.

- ألن يؤثر هذا في ليلى...
- ما عدت أرضعها.
- لماذا لم تحضريها... اشتقت إليها.
- لا تعرفك.
- أنا أعرفها.
- سأذهب.
- باق خمس دقائق على انتهاء الزيارة.
- ما عدت أحتمل... قدماي تؤلمانني... بخاطرك.
- مع السلامة.

لم أستطع سؤالها متى ستأتين الزيارة التالية وأحضري لي كنزة الصوف الطقس يميل إلى البرودة، راقبت خروجها من الباب، شدت على كتفي يد السجان: انتهيت... سأعيدك إلى الزنزانة. عندما لن نجد شيئاً نقوله، لا بد أن نمتدح الموز. الموزة الصفراء، الهلالية. ذات النمش الحنون «الموزة الصفراء الطرية كعبوة معجون الأسنان، نستنشق رائحتها، الرائحة... جلد امرأة خارجة تواً من حمّام ساخن... لكنها رائحة الموز كذلك... بهدوء ننزع قشرتها لنرى لبها الطري اللزج...»

- سنشرب عصير برتقال... مع الماما.
- بابا، نهضَت عن الكرسي واقتربت مني، طوقت عنقي بذراعها النحيلة وشدت رأسي نحو فمها «أريد التبول»...

ألقيت نظرة خاطفة على الشارع لأطمئن نفسي أن هالة غير موجودة ونهضت.

لا أعرف لماذا ترددت أمام بوابتي المرحاض، أين ندخل باب السيدات، أم باب الرجال.

- ادخلي بابا سأنتظرك هنا.
- أخاف... تعال معي.
- تعالي بابا ودخلنا الباب الآخر.

لم أر حفرة المرحاض، بل ابتسامة رجل يصر على عقد حزام بنطاله المفتوح أمام عيون تتعجل التقعر، الأبيض والمياه.

- هل تمارس العادة السرية؟
- ما هذا السؤال يا هالة. هنا أكيد. وهناك أيضاً عادات سرية... عادات... البكاء هنا عادة سرية.
- أتشعر بمتعة؟
- لا أبحث عن المتعة، أشعر بذاتي وهذا يكفيني.

رفعت ليلى إلى المغسلة، غسلت يديها ويدي وخرجنا، الصالة خالية، في مثل هذه الأوقات لا أحد يدخل الكافتيريات...

- تأخرت الماما؟
- سنشرب عصير البرتقال.

لم تعد ليلى إلى الكرسي، وقفت أمام النافذة المغلقة، حضنت وجهها بكفيها. سلوك لا إرادي نقدم عليه لحظة نخشى أن الرأس، رأسنا

سيسقط. لم يخطر على ذهني تحضير أي عبارة لأقولها أمام هالة. في يوم ما... في يوم ما هناك اقتنعت أن لا رجاء من كتابة الرسائل المشبعة برائحة الليمون، سأتركها تحدث ليلى وسأكتفي بعصير البرتقال. حتى لن أنظر إلى وجهها ربما يحرضني على الكلام... كلام الأمس.

ليلى يا... ليلى
الذئب لم يأكل جدتي
لم ينتظرني في سريرها.
ليلى يا... ليلى
الذئب لم يأكلني
لكنه أجفل قلبي
قلبي...

صار مثل أبواب حانات رعاة البقر. النافذة مفتوحة وليلى على الإفريز تهتف: ماما... ماما...

لم أتحرك... لم أعرف ما يشد إلى الأرض في لحظات تستوجب الطيران. رأيت تلويحة ذراعيها، ثوبها الوردي، جديلتيها... نهضت. نظرت من النافذة... ليلى لم تمطر... لم تمشي أسندت كفي إلى إطار النافذة ودفعت جذعي إلى الأمام...

حزمة من الرجال، كأنهم ينظرون إلى انبجاس المياه من فوهة بئر حفرت حديثاً.

- ليلى... ليلى...

لم تتوقف السيارات، لم يبتعد الرجال عن الفوهة، لم تهدأ ألسنة الباعة الجوالين، الأمرأة استدارت على عجل، امرأة سأبقى على يقين أنها هالة، بثوب فستقي طويل وحقيبة جلدية بيضاء، ركضت بين زحام المارة لتختفي في سيارة سوداء انفتح بابها فجأة.

ليلى...

لم يبتعد الرجال عن الفوهة، وأنا لم أرها، لم تكن في أرض الموتى ولا سماء الملائكة، انحلت في الهواء... أتنفسها الآن سعالاً.

حرب شوارع

من النافذة يظهر الشارع، الشارع الذي يستحم بأمطار كانون الأول وتظهر أربع مظلات سوداء يختفي تحتها أربعة رجال، رجال، فللنساء مظلاتهن الملونة. لا تشعر بالبرودة رغم أن المدفأة مطفأة، تقف بلباسك المكتمل كأنك تنتظر أحداً، أو تستعد للخروج. تشد ياقة القميص الكحلي الموشح بخيوط ذهبية الذي أرسلته لك عمتك. يومها قالت: «كل عام وأنت بخير» وأنت ضحكت، «أما زلت تذكرين يوم ميلادي؟ وتتفقد محتويات السترة السوداء التي أرسلها أبوك مع بنطال من اللون نفسه وهمس لك «إنها لباس الخروج» وابتسم، لا شيء في جيوب السترة سوى مناديل ورقية بيضاء، تفيدك عندما يحتقن أنفك بالرشح وعندما تسيل خيوط العرق على جبهتك وعندما...

البرتقالتان ما تزالان على الطاولة وستكونان مع فنجان قهوة ضيافة لائقة، أيأتي بشير لزيارتك حاملاً في فمه الحكايات والنكات الطازجة.

«هناك، قتل رجل لأنه عطس، وهناك أيضاً قتل رجل لأنه ضحك/ بعد سماعه الطرفة/ ، وهناك كذلك رسب شاب في الامتحان لأنه قال:

«أنا لا أحب المشمش» ونجحت فتاة لأنها أبرزت في مكان ما من جسمها رأس ثوم وجمجمة!!»

- لكن لماذا لا تضحك!!

- لأنه ليس هناك.

«شابان أعلنا معاً أنهما يحبان البندورة، الأول نجح والثاني رسب لا شيء إلا لزرع الحيرة، ألم تقرأ العبارة المنتشرة في شوارع المدينة: تعالوا نزرع الحيرة!!»

مسرعاً دوماً مثل الباعة في محطات القطار، ضروري أن يوفر كل شيء في صندوقه وهناك أيضاً ابتسامته الكريمة الخاطفة... لكنه الآن غائب.

أيأتي بشير...

أنا ضد التشاؤم والتفاؤل، سنطبخ سفرجلية وأرزاً.

أعندك سفرجل؟ لحم؟ أرز؟

سأذهب نصف ساعة وأعود، أنت ستعد القهوة وتقشر البرتقالتين وتشعل المدفأة...

هل قرأت «التنظيم والتكتيكات لـ مجاهدي خلق»، أم أن «ما العمل؟» أهم لنا عندك من «ذهب أيلول» أليس كذلك؟

يعود بعد نصف ساعة مبللاً بالمطر، يحمل أكياس السفرجل واللحمة والأرز، «احمس اللحمة مع الثوم، قشر السفرجل وقطعه، اسلقه معها، لا تنسَ أن تضيف معها في النهاية ملعقة نعناع ناعم، لا تطبخ الأرز، سأعود بعد ساعة وأطبخه.

انقعه بالماء الساخن... سأطبخه مع العصفر، لكن هل عندك عصفر؟

أين قشور البرتقال؟ ضعها على المدفأة لاحتراقها رائحة منعشة!!»

أنت ستحدثه عن حلم الليلة الفائتة.

- أحتاج إلى من يسمعني، هل تسمعني يا بشير؟
- القهوة رائعة، رائحة الهال... أسمعك.
- وحيداً في ساحة قصر مهجور أو ثكنة خرج جنودها في إجازاتهم الأسبوعية، لا أعرف من أتى بي إلى هنا ولا ماذا سأفعل... هل أنا سائح يزور الأماكن القديمة ويملأ آلة تصويره بالقناطر والقبب أم هارب من السيارات السوداء.

لم أنتبه أنني كنت أمشي على بلاط مفروش بالياسمين. لم أر أحداً، لكن هناك ظلالاً تسقط من الأعلى، وعندما تكون ظلالٌ يكون بشر أليس كذلك يا بشير؟

خجلت من نفسي، كيف أمشي فوق الياسمين... انحنيت، خلعت حذائي وحملته بيدي، التفت لأرى إن كنت مشيت طويلاً، فرحت، لأنني لم أتجاوز البوابة بعد، سمعت صوتاً، أتمشي فوق الياسمين!! وسمعت ضحكته كذلك. لم أستطع الخطو أكثر، تجمدت، أردت الهتاف له «لكنني خلعت حذائي، أنا أحب الياسمين كذلك، مفترضاً أن صاحب الصوت يحب الياسمين، أعطني مكنسة لأفتح طريقاً» من أحواض الفسقيات انفجرت النوافير، ركعت.

استيقظت مبللاً بالعرق.

- الياسمين أوله يأس وآخره سؤال. قال بشير.

من النافذة يظهر الشارع، الشارع الذي يستحم الآن بأمطار كانون الأول وتظهر أربع مظلات سوداء يختفي تحتها أربعة رجال... لا يعلمون ولم يخبرهم أحد أنهم سيقفون بعد ربع ساعة على الجدار المحاذي لمسمكة حلب في ساحة السوق الجديدة... وجوههم إلى الجدار الرمادي، مظلاتهم مطوية على الرصيف مثل بيارق الهزيمة، بطاقاتهم الشخصية بين كفي رجل لا يحب خط الرقعة ولن يتأخر احتجاجه: لماذا لم يكتب الحيوان الأسماء بالخط الكوفي!!

بائع الأرضي شوكي يعد خمسون ثمرة لامرأة ترتدي معطفاً كحلياً ويلتفت إلى ابنه الذي يتبول على طرف الحديقة «ألم تأت بالخبز والحلاوة بعد!!»

تحت الحديقة ملجأ لحرب لم تأت ولن...

فتى صاح قبل أسبوع عندما سمع رشقات الرصاص «أمي، تعالي إلى الملجأ» هي ضحكت وأخذته إلى بائع البوظة.

الرجال واقفون أمام الجدار، رائحة خوفهم امتزجت بزنخ الأسماك وحموضة الخضار الفاسدة...

- سيقتلونهم... همس بائع البندورة لابنه.

- سيعتقلونهم... قال بائع أدمغة الخراف للطبق المنبسط أمامه.

لماذا يا إخوتي، يا من عبرتم من جانبهم، لم تخبروهم أنهم مقودون إلى الجدار وفوهة البندقية.

ضروري أن نتحرش بالناس، نقول لامرأة ترتدي الحداد: لقد كان رائعاً، رأيته قبل أن... وأرسل لك القبلات. ونقول لفتاة حزينة تخفي خاتمها في إصبع يدها اليمنى. سيعود... قال لي: سأعود...

هل سنحصد ابتسامة بحجم الشمس؟ السماء متسخة الآن بقشور البطيخ، لا تنظر إلى الأعلى يا أخي... الجدار قريب وأم ستبكي لحظة رؤية جبينك نازفاً.

من النافذة يظهر الشارع، الشارع الذي يستحم...

لم يأت بشير... البرتقالتان على الطاولة...

تطفئ مصباح النيون وتتجه إلى الباب، تشد إصبع القفل لتتأكد وربما للمرة الألف أنه ما يزال مغلقاً.

من الضروري وقبل أن تحاصرك الابتسامات إعادة سترتك السوداء وقميصك الكحلي وبنطالك الأسود إلى الحقيبة.

ترتمي مثل كيس حنطة على فراشك، يوماً ستركض خلف أربعة رجال، وربما أربع نساء تحت مظلاتهم لتقول: أنتم مقودون إلى الجدار وفوهة البندقية و... إن لم ينصتوا يكفي أنك قد بلغت وأنك كذلك تحت المطر، مطر كانون الأول المبارك الذي سينعش عظامك.

طعوم السكاكر

دبَّ فيَّ النعاس وليس بي رغبة في النهوض.

ممدداً في التابوت الذي يهتز على أكتاف الحمالين الأربعة، أشم رائحة الخشب وملابسي النظيفة، لن أحدث الفتاة التي أطلت من الشرفة لتبكي وتمزق قميصها الرماني، ولن ألوح لأطفال روضة الحبل بلا دنس العائدين إلى بيوتهم، أردت أن أطالب تلك المرأة المجللة بالسواد والتي تتفلت من أذرعة أخواتي وتندفع إلى الحافة لتلمسها كأنما تسترجع لمسة أخرى، لمسة من ألفي عام. أن أنهض يا... وأنا ليس بي رغبة في النهوض، لكن، ربما ألبِّي نداءها لأرى كيف تكون عينا الأم وهي تسير خلف تابوت ابنها إلى التراب النهائي، أردت فقط أن أطالبها بإخفاء دموعها، لا يجوز إظهار الدموع أمام الكلاب.

- هل تحلم؟
- لا، منذ زمان لم تأتني لذة الافتراق عن الوقت.
- ماذا إذاً؟

الرواق طويل وضيق، عجوز بالأبيض يمشي الهوينا ويدق جزمته السوداء المطاطية على البلاط الجاف، خلفه امرأة وأربع فتيات.

- مات... قال دون أن يلتفت، هل تسمعينني يا مدام؟

في هذه المدينة كل امرأة لا تشبه القرنبيط يسمونها مدام.

- مات... الأسباب مجهولة، لكن سنشرِّح الجثة ونتأكد.

تحدث ببرودة الثلاجة التي سيفتحها بعد دقائق.

- لا... هذه الـ لا المشبعة بالدموع أطلقتها أمي وردد خلفها الرواق الطويل الأصداء. ربما لأنه قد تقابل عندها فعل شرّح وفعل ذبح، ولم ترد رؤية قلبي معلقاً فوق قميصي الأبيض، لم ترد رؤية ما كانت تراه يغفو مطمئناً تحت الكنزات الصوفية التي تحوكها في الشتاء.

وتداعت إلى مخيلتها صور اللحامين وهم يعلقون في الصباح ذبائحهم في متاحف اللحم النيء ويستعرضون الأعضاء.

«انظروا هذا هو القلب، هذا الكبد، الذبيحة طازجة، ألا ترون؟ اللحم وردي، خاتم المسلخ البلدي الأزرق على الظهر والإلية...»

لحظة يفتح بوابة الثلاجة الكبيرة سأعرفهن جميعاً، هو سيضغط بجزمته السوداء الطويلة على فخذي «ها هو ابنك، أعرفه، أدخلته إلى هنا قبل ساعة، ما يزال حاراً» وهن أمي وأخواتي الأربع.

أمي وسلمى أتتا بالخف المنزلي، أول ما دق الباب وسمعتا نبرة الكلمات الأولى تخرجان وعلى الدرج تطالبان ليلى بإحضار منديلين لغطاء الرأس.

ليلى ومها، أعرفهما من وجهيهما الناضحين بالعرق واحمرارات دم الاضطراب، وعدم قدرتهن على الكلام...

يخطر لي أن أقول لهن «لكم تسببت لكنّ بالآلام»

وداد من أناقة لباسها وعطرها، تبقى هكذا حتى في اللحظات المأتمية، أفكر أن أدعوها وأهمس لها «وداد يا رائعة أنت، نعم هناك موت، موت معطر، مرحى لك»

أخواتي اللواتي تسلَّقنني دوماً كشجرة سرو، شجرة سرو قليلة الأغصان وسرعان ما تميل كاشفة جذعها مع نسمات الهواء.

أملأ جيوبي بالسكاكر الملونة وأدخل البيت كرجل، رجل قصير القامة، بلا شاربين وربطة عنق وسعال.

أمي أدخلتني باكراً مصنع الأبوة، أرادتني أباً وأنا كذلك لأرى ضحكات أخواتي وتحلقهن حولي كدراويش المولوية.

«أبوك فقد الرجاء بأمك التي لا تلد إلا الإناث» قالت عمتي.

أردت أن أقول «وأنا يا عمتي» لكنه النعاس خاط فمي.

لم أحس بشفتيه على وجهي، لم يزرني في الليل ليغطيني أو يتفقد حرارتي، لم يقدم لي هدية بنجاحاتي وكنت طالباً متفوقاً، الأهم من ذاك كله، لم يترك فيّ رائحته، نعم رائحته، للأب رائحة، رائحة لحم نيء متبل بالثوم والكزبرة. كان أبي بلا رائحة!!

خرج في الظهيرة لاهثاً «حتى دون أن يتذوق لقمة من الملوخية التي طبختها ناشفة كما أحبَ» قالت أمي.

أمي التي لا تحب إيقاظي، أيقظتني، عبقت أنفاسها برائحة اللاعودة.

- قم انهض!! رسمت على جبيني وصدري شارات العناية الربانية.
- أنت هو!!

لم أفهم شيئاً، لكني رأيت وجهها ينزف عرقاً ويتوهج باحمرارات الشوندر المسلوق.

- قم انهض!! لن يبقى بيتنا يوماً واحداً بلا سكاكر.

نهضت، ما من سكاكر، ما من أب يدفئ برودة طفولة الأخوات، ركضت ووقعت، وقعت وقمت لأنني اقتنعت برسالة السكاكر المقدسة التي نذرت لها والقناعات الكبرى تأتي في لحظة، لحظة إشراق، صرت ضوءاً لكني خسرت الطفولة.

بعد خمس عشرة ساعة من الركض في الشوارع والأقبية والخانات لا تمتلئ جيوبي إلا بالسكاكر.

أخوالي تكفلوا باحتياجاتنا، يرسلون من مدينتهم البعيدة البرغل والحمص والعدس واللحم المقدد... مع مبلغ يكفينا للخبز والخضار والمحروقات.

كنت أصلي كل ليلة أن أجعلني قطعة سكر لا تنتهي وبرغم أن صلاتي تخرج من قلبي الذي يقترح العجوز إخراجه، الآن، ليكشف أسباب موتي، لم يستجب لي.

- أسيطول ركوعكن؟ قال العجوز الأبيض وهز حزمة المفاتيح.

وحدها أمي من لمستني، مدت أصابعها مسحت وجهي وقلبت جفني، وأنا كافأت عملها العظيم بأن رأيت... رأيت سيارة سوداء وحولها مجموعة رجال يشهرون بندقياتهم. ربما هذا آخر ما رأيت.

- خذوه إلى البيت، هناك ستنظرن إليه بشكل أفضل!!

سحب من طرف الفسحة أمام الثلاجة سريراً محمولاً على عجلات، أداره بمهارة وأوقفه أمام باب الثلاجة المفتوح.

- هل أنهيت معاملة إخراجه؟

- معاملة إخراجه!! نهضت أمي واستندت إلى طرف السرير المتحرك.

- معاملة شكلية... سيعطونك إياها في الديوان بخمس دقائق. لا تنسينا... لقد تعذبت مع المرحوم، قال في إشارة إلى الإكرامية. فتحت وداد محفظتها وأخرجت ورقة نقدية.

- ساعدنني في رفعه إلى العربة!! قال أخيراً ودس الورقة النقدية في جيبه.

سيأتي أبي كذلك، يضع مظروفاً أصفر أمام وداد التي حافظت على برودة أعصابها ويهمس في أذنها «تكاليف الجنازة» وهي ستهمس له كذلك بفمها المعطر «جنازة واحدة أم ست جنازات؟» هو سيهرع إلى الباب المفتوح وهي ستدفن وجهها بكفيها وتبكي.

قبل حفنة التراب الأولى سأفتح التابوت كأنما أفتح النافذة لأطل على الشارع المبلل بأمطار الليل، ولا أعرف إن كنّ سيفهمن كلماتي المتكسرة ولا إن كانت ستصلهن في الضجة التي أحاطت بالحفرة.

- لم أمت!! قتلوني!!

هل سمعت يا أمي؟ إنها آخر كلماتي ومن الضروري أن تسمعيها، قتلوني.

رغم أن أخواتي ما عدن يأكلن السكاكر ورغم أن السكاكر لا توزع في المآتم، سأخرج يديّ من جيبي بنطالي وأرمي لهن السكاكر الملونة، دون أن أتساءل من وضع السكاكر في جيبيّ.

- هل تحلم؟

- لا، منذ زمان لم تأتني لذة الافتراق عن الوقت.

قال النهر...

رفعت كفيها إلى الشمس التي تغيب ربما لتؤكد أن الحنَّاء لم تجف عنها بعد، وهو أيضاً نظر معها.

- أتنتظرين أحداً؟
- لا، أودع الشمس.

بعينيه مسح عنقها ووجنتها، هي خود وهو محمد، عروسان في الشهر الثالث، أحبها حتى الصلاة، أحبته حتى أسْرت به ليلاً إلى جنائنها الضاحكة.

كأنما قال: ضع العشاء أنا عائد!!

هي لم تقل شيئاً، ووضعت الديك المحمر فوق طبق الفريكة وحملتها إلى بساط المائدة، نشرت الخبز المرقوق وأطباق اللبن.

راقبته، علق عباءته، عقاله، منديله الحريري الأبيض.

- هل أساعدك؟ قالتها بخفر عذراء من الضروري أحياناً أن يكون اسمها خديجة أو خدوج أو خود.
- يعطيك العافية، إرتحي!!

خلع نعله وجوربه وجلبانه، أبان بنطاله الطويل وقميص الحرير رجلاً أبيض، لن يأكل قبل الوضوء والصلاة.

النهر قريب وهو قفز برشاقة من خبر الأماكن والأشياء، بعينيها احتضنت جسده الفتي المتوثب، بعينيها أسلمته إلى ضفة النهر.

- لو ننزل معاً، قال لها في أيام زفافهما الأولى.

غطت وجهها بكفيها ومن شقوق أصابعها خرجت له، محناة ودافئة.

- في الليل لن يرانا أحدٌ.

في باطن كفيها خبأت خوفها وتركته يمتزج بلون الحناء وعطر البنفسج المسكر.

دخلت المطبخ لتأتي بالملعقتين ودخلت كذلك لتأتي بالمنشفة.

ركعت على البساط، فردت المنشفة على كفيها لأنها تستعد لتجفيف وجهها، عكس البدو الذين يبتعدون عن النهر، اقتربت وطلبت من محمد أن يكون بيتهما قريباً من النهر وفي جوار بيوت الفلاحين المهاجرين من أرياف حلب وإدلب.

تأخر، نهضت، لكنها لم تره.

قالت لنفسها أو لم تقل: إنه يقضي حاجة خلف شجرة طرفاء.

وجه النهر يرتجف، وجهها كذلك.

النهر لم يصرخ، هي صرخت.

النهر ركض، هي كذلك.

الديك للكلاب، الفريكة إلى مناقير الدجاج، اللبن للتراب.

الرجال عراة على ضفة النهر، وفي الماء.

النساء شجيرات سوداء على الضفة.

- هل كان يسبح أم يتوضأ؟

خود أرخت شعرها.

- أين كان يتوضأ.

خود قصَّت شعرها.

- يا رجال ابتعدوا عن الضفة... أرسلوا أحداً إلى القرية الأخرى.

خود صارت عمود ملح.

محمد ظهر في مكان آخر بعد ثلاثة أيام.

بكت النساء، والرجال أحرقوا سجائرهم، خود تلفحت بالسواد والصمت.

قالت أمها: تعالي، لك الصدر ولنا العتبة.

أبوها لم يقل شيئاً لأنه تحت سطوة النعاس العظيم.

قال أخوها: على الراحات يا خود.

قال أخوها الآخر: ما تزال أنفاسك في بيتنا.

هي لم تقل شيئاً، النهر قال لهم كل شيء.

الزيارة

ليست أكثر من أم، أم أتت من قريتها البعيدة لتزور ابنها، جمعت في حقيبتين جلديتين الأشياء التي اعتقدت أنه بحاجة إليها.

«لكن الزيارة ممنوعة يا أمي، تعلمين أنني لم أقصِّر، ذهبت إلى هناك أكثر من عشر مرات، لكنهم لم يسمحوا لي بلقائه، أو حتى بإيصال الخرجية والملابس الداخلية». قال ابنها الأكبر وانحنى على الحقيبتين ليعيدهما إلى الدار.

تحلقت حولها ابنتاها «يا أمي الدنيا شتاء انتظري يوماً آخر وسنذهب معاً».

شدت على أذني الحقيبتين وتقدمت بفتوَّة نحو باب الدار الخارجي.

كل شيء حسم في الليل، استيقظت، توضأت، صلت، بكت، دعت، دخلت بيت المؤونة وجمعت في قطرميزات صغيرة: زيتون، لبنة، دبس فليفلة، بحثت عن أكياس ووضعت فيها كبة مقلية، ألبسة نظيفة، حشائش مجففة (نعناع بري، بابونج، شيح...).

في الليل كذلك فتحت صندوق ملابسه، وقفت تحت صورته

التي التقطها بعد حصوله على الثانوية الصناعية، نشرت قمصانه وكنزاته، حملتها وألصقتها بصدره، صدره المغطى بالبلور.

الكنزة السوداء المخططة بالأخضر، اشتراها بعد نجاحه في مسابقة لتعيينه في معمل النسيج، قالت: «صرت رجلاً سأفتش لك عن عروس» وهو انحنى على يدها ووضع وشماً شفافاً «ما زال الوقت مبكراً على هذا الكلام، لكم في رقبتي ديونٌ، ديونٌ كبيرة» انسحب من ذراعيها اللتين طوقتاه «إلى أين؟»

«سأنام» «لن تنام، سنأكل معاً!!»

هو مضى إلى الزاوية ليخلع ملابسه، وهي إلى الغرفة الكبيرة لتجمع الأولاد والأحفاد حول مائدة الإلفة العائلية.

«لن تصل الأغراض يا أمي... سيسرقونها» قالت ابنتها الصغرى.

لم تسمع إلا صوته الذي يأتيها مشبعاً بروحه، روحه التي تنطفئ هناك.

«لا أريد أحداً منكم» كأنما قالت نابذة أولادها وابنتيها غير المتزوجتين.

في الفجر أيقظت حفيدها، غسلته وألبسته، أرشفته حليباً ساخناً، تقدمت وهو يتبعها إلى الطريق الرئيس.

في الليل لامست بالقميص الليموني صدره المغطى بالبلور، بغتةً رأته أمامها، كأنما تساءلت كيف دخلت هنا، لكنه أجاب «إجازة يا أمي» رفع قبعته ورماها على السرير وارتمى على صدرها، ستبقى طويلاً أليس كذلك؟

«ثلاثة أيام» انحنى على كيس نايلون، أخرج منديلاً حريرياً أبيض، طرزت زواياه بخيوط ذهبية على شكل أوراق الزيتون «منديل أبيض!! لا يجوز يا ابني، أمك صارت عجوزاً، ما هذا؟» أشارت إلى القميص الليموني، نهض ليقترب منها ويهمس «ابنك عاشق».

هي ابتسمت لهذه المزحة، وهو مضى إلى الحمام ليزيل غبار السفر.

«ستضيعين في المدينة، سأذهب معك يا أمي» قال ابنها الأكبر.

«لا تسمعيهم!!» أتاها صوت زوجها الغائب منذ سنوات تحت تراب أوهام الموت.

ابتسمت، لم يرَ ابتسامتها أحدٌ، لكنها ابتسمت، وأشرقت الشمس التي رآها كل من كان واقفاً لوداعها.

صعدا الحافلة، فتحت عينيها لأنها أرادت أن ترى، وربما تودع جرابلس، منبج، تادف، وهم لوحوا لها لأنه لم يبق لهم وسيلة للوداع إلا هذه، لملمت أطراف منديلها الأبيض المطرزة زواياه بخيوط ذهبية على شكل أوراق الزيتون، أجلست حفيدها قربها، وضعت الحقيبتين عند ساقيها، انطلقت الحافلة ورفرفت روحها.

في الليل عاد، كان يرتجف، لأنها استنشقت رائحته استيقظت، ركع عند قدميها وبكى، قالت «لا تبك!!» فركت شعره، لامست عنقه، وقالت «لا تبك!!» لأنها بكت، كأنما رأت، رأت جناحيه وسمعت خفقهما، أبصرت في المدى دوائر التحليق، لكنها امتدت شجرة في الفراغ الصامت لتغرر الطير التائه.

«أنا بريء يا أمي، لم أفعل لهم شيئاً، أبلغني حسين أنّ اسمي ورد في التحقيق، صرت مطلوباً وهم يفتشون عني، صدقيني يا أمي لم أفعل شيئاً».

هي صدقته، حضنت وجهه ورفعته، التقت دموعها ودموعه، وهو تيقن أنها صدقته، لكنه انتظر صباح تصديقهم.

«كل شيء سيجري ببساطة» قال الأخ الأكبر، تربع فوق البساط وأشعل لفافة.

«حدثته وقال ليأت إلينا، مسألة شكلية، بضعة أسئلة لن تستغرق أكثر من ساعة وينتهي كل شيء، اذهب وأحضره معك قبل فوات الأوان».

«تذهبان معاً» قالت الأم «معاً» رد الأخ الأكبر.

«سنذهب معاً ونعود معاً» كرر بثقة.

«لا تخف» قالت له، شدت رأسه إلى صدرها كما كانت تفعل يوماً «إن سالت دموعك هنا فلا تدعها تسيل هناك، الدموع علامة خوف، لتكن ثقتك بالله كبيرة...»

وثق بالله وبكلماتها، رفع رأسه عن صدرها «سأنام الآن».

«سأضع لك العشاء»، «لست جائعاً، سأنام».

«لا، لن تنام هنا، سيأتون في الليل، اذهب ونم عند أختك!!»

«كلام أمي صحيح، نم عند حسيبة وفي الصباح أمرُّ عليك لنذهب».

ولأن غياب ساعات لا يحتاج إلى وداعات لم يتوادعوا، شد الكوفية ليغطي وجهه وخرج.

في الفجر كانت فوق سريره سقته حليباً وكلمات الطمأنينة.

رغم رؤيتها لتجعدات بنطاله وقميصه واتساخ شعره لم تطالبه بتغيير ملابسه والاستحمام، حالما تعود ستجد الماء ساخناً والملابس النظيفة المكوية على سريرك، قبلت رأسه، وراقبت خروجه مع أخيه الأكبر.

في فسحة الدار اقتربت حسيبة وزوجها، اقترحا عليهما النقود.

«لا نحتاج إلى شيء، مساءً سنعود» رد الأخ الأكبر.

«سنكون بانتظاركما».

في أواخر الليل عاد بمفرده، دخل غرفته مثل لص ورقد تحت أغطية الحمى، حمى من يرى ويفقد القدرة على الكلام، وأمه مستيقظة في غرفتها تنتظر.

عندما أعلما عن وصولهما عبر غرفة الاستعلامات، أتى الصوت من الطرف الآخر للهاتف مؤكداً صعود محمد بمفرده.

بقي أمام البوابة ينتظر ومحمد لم يخرج، وعندما سأل، ضحك الحارس واهتزت بندقيته

«دخول الحمّام ليس مثل الخروج منه».

«ما يعني هذا؟» «يعني اذهب إلى فراشك الدنيا برد!!»

«أأعود غداً؟» «غداً!! مستعجل... مستعجل».

«لم أعرف أنه سيتأخر، لم أعطه مصروفاً ولم يجلب معه ألبسة وصابوناً».

«فيما بعد، فيما بعد تحضرون المصروف والألبسة...»

«متى؟» «لا أعرف، أنا أعمل هنا، على الرصيف كما ترى، وهو هناك في الداخل» وأشار بفوهة بندقيته إلى البوابة المغلقة.

استدارا معاً، الحارس إلى محرسه والأخ الأكبر إلى الشارع المؤدي إلى محطة سيارات الريف التي لم تنتظر تأخره.

وهي ليست أكثر من أم أتت من قريتها البعيدة لترى ابنها ولأنها امرأة، وكي لا تبقى وحيدةً اصطحبت معها حفيدها.

نزلا في المحطة المركزية، سألت بائع كعك عن الطريق إلى هناك.

«يا خالتي صعب، صعب أن أدلك من هنا، سأوقف لك سيارة، كل السائقين يعرفون ذلك المكان، ألن تأخذي له كعكاً؟...»

«لا، أخذت له كل ما أريد، لكن سآخذ كعكة للولد...» قالت وأولجت يدها في صدرها.

لم تعرف شوارع: السبع بحرات، باب الحديد، ميسلون، المشفى العسكري، الميدان، بستان الباشا، عين التل، لتودعها، شدت المنديل على عينيها.

«سأسكن في المدينة، تعبت يا أمي، أضيع ساعتين كل يوم في الطريق».

«لكن من سيغسل ثيابك ويطبخ لك؟».

سأطبخ بنفسي وسأغسل... في الجيش اعتدت كل هذه الأعمال».

«وأنا!! هل ستتركني وحدي؟»

«وحدك!! كيف يا أمي؟ كل إخوتي عندك».

أرادت أن تقول أريدكم كلكم إلى جانبي، أرادت أن تقول أشعر بوحشة لافتقاد أحدكم، لكنها لم تقل شيئاً، شدت منديلها على رأسها وخرجت «جائع، سأعد لك العشاء».

وقفت أمام البوابة السوداء الكبيرة، لم يعرفها أحدٌ، ولم يسمع نداءها ابنها الذي بات ينام حتى منتصف النهار.

قرفصت قرب حقيبتيها وحفيدها الصامت الذي بلل بلعابه طرف الكعكة، دخل الزوار ولم يسمح لها بالدخول.

لأنها صرخت، قال لها الشرطي «ممنوع يا خالتي ممنوع!!»

بكت لأنها فقدت المقدرة على الكلام، وصاحت لأنها فقدت القدرة على الهمس.

هو لم يسمع أصداء صوتها، لكنه ارتعش ونهض ليشرب الشاي ويمشي في الممر الطويل، كل شيء يتتالى كحبات سبحته وكل شيء عاد إلى مبتدئه كذلك.

«لماذا لا تصعد إلى النافذة؟» سأله صديقه.

«لا أحب رؤية الزوار يتكسرون على الأسوار».

ناداها رجلٌ خرج تواً من برميل الصباغ الكحلي، اقتربت وتبعها حفيدها.

«أنا أم محمد» لأنه يعرفه عرفها.

«أين الأغراض؟» هرعت إلى الحقيبتين وحملتهما.

«سآخذهما...» أشرقت وتبلل فمها بلعاب من يحتجز الكلمات.

«ماذا خبأت في الحقيبتين؟» هي لم ترد وهو تابع «سنفتشهما!!».

«ألا يمكنني رؤيته؟».

«رؤيته!! لا، مستحيل».

أرادت أن تقول «أريد أن أقبله وأشم رائحته...» أرادت أن تقول «أمانة أن تسأله أيلزمه شيءٌ... أمانة».

وأرادت أن تقول... لكن الرجل استدار تاركاً كلماتها تذوي على حصى الطريق، قبلت أصابعها ولوحت للنوافذ البعيدة، استدارت وحفيدها تبعها.

لم تقل شيئاً لأنها ما عادت تستطيع الكلام، ولن ترفع ذراعها مرةً أخرى لأنها التصقت بمنديلها الأبيض، ولن تنهض لأن صهريج الفيول ألصق جسدها بالإسفلت، حفيدها انحنى، رغم أنه لا يتكلم صاح:

«جدتي... يا جدتي كيف سأعود إلى البيت وحدي؟».

هطل المطر لأن الأرض ما تزال على عطشها، ولأن السيارة التي حملت الأم تركت على الإسفلت بقعة حمراء.

تعارف

أوصلني إلى باب الشقة وضغط بإبهامه على الزر الأحمر للجرس، لحظة سمع قرقعة البابوج على البلاط استدار نحوي «سأعود بعد ساعة، هل هذا يكفي؟».

لم أعرف بماذا أجيبه، لكنني هززت رأسي بالموافقة.

ساعة، تفتق نسيج الجسد وتعيد حياكته، ساعة.

انحنى على العتبة ووضع كيسي البندورة والخبز اللذين اشتراهما ونحن في الطريق إلى البيت، قبل أن يفتح الباب كان قد تراجع من أمامه وبدأ النزول على الدرج.

أردت أن أقول له «لا تتركني!!».

لكن الباب فتح وأطلت امرأة بثوب أزرق طويل، شعرها مملس بالزيت زيته، كأنها لم تستحم منذ أسبوع.

قال لها وهو على زاوية الدرج: «لم يبق عندي مال للحمة».

وهي انحنت على كيسي البندورة والخبز، استدارت تاركةً الباب مفتوحاً لي.

شعرت بانتعاش بذرة الطفولة داخلي، في يوم «في يوم ما» أوصلني أبي إلى الحلاق، «ابق هنا!! سأعود بعد ساعة».

كان للحلاق هيئة مصارع، لست أنا من أدرك هذا فحسب، بل الحلاق نفسه الذي ملأ أطراف المرايا الكبيرة بصور مصارعين يستعرضون عضلاتهم وقبضاتهم فوق خصومهم الملطخين بالدم «سيضربني» «سيرميني أرضاً ويضع قدمه فوق صدري كما الصورة تماماً» لكن أبي سيعود بعد ساعة.

وكي أطرد الخوف من داخلي خرجت عبارة «بعد ساعة» ومددت ذراعي إلى باب الدكان حيث كان أبي قبل لحظة.

الحلاق ابتسم، أخرج لوحاً خشبياً وأسنده إلى ذراعي الكرسي الكبير.

«تعال... تعال اجلس هنا يا بطل!!».

ضحكت وركضت إلى الكرسي.

لكن صاحب الأسنان الذهبية الذي أوصلني إلى باب الشقة وضغط على الزر الأحمر للجرس ليس أبي، هو قواد الآن.

وأنا لست في دكان حلاق، أنا الآن في بيت التي سبقتني إلى غرفتها لتتعرى، أو لتجهز مقصها ومشطها وتشذب أطراف رغبتي الفائضة.

«لا تتركوني وحيداً يا من سرتم معي في الطريق نفسه، لا تتركوني وحيداً، لماذا أبقيتني وحيداً يا أبي عند حلاق ومصارع؟ أقصد لماذا تركتني يا...».

المرأة ذات الثوب الأزرق ألفت دخولي وربما اطمأنت، أغلقت الباب خلفي ودخلت إلى غرفتها، خلفي وأمامي جدران عليها صور بإطارات مذهبة لملائكة وقديسين وقططة وصورة طفل يأكل تفاحة.

لم أستطع الجلوس على الأريكة، أخرجت منديلاً من جيبي ومسحت عرقي.

«هل أنا من أكل التفاح أم سواي؟ أأنا من تورط في تسمية الأشياء؟»

فراغ يطل على الشارع، نافذة، أناس يشبهوننا، صور.

المرأة التي نراها كثيراً: الأم، الأم التي تنافسها: الخالة.

تلك الستارة الزرقاء العالية: السماء، الولد الذي يظهر لي في المرآة: أنا سمعت بكاء طفل، أردت فك أزرار قميصي الليموني وأهدهد ليعود إلى براءة نومه وصمته.

الطفل لم يصمت، أنا لم أفك أزرار قميصي، وقفت تحت الأيقونة حيث الملائكة تشبه الطيور والأطفال يشبهونني.

«هل تؤمن بالأيقونات؟» كان صوت الطفل.

«أما تزال الأرحام تأتي بالأطفال يتكلمون في المهد؟»

«هل تؤمن بالأيقونات؟ لماذا لا تجيبني؟»

«أؤمن بالأطفال، لكن من علق هذه الصور؟»

«أمي...»

«أمك تحب الأيقونات أليس كذلك؟».

«لا، علقتها لتخفي شقوق الجدران...».

«خلصني جاع الولد!!» كان صوت المرأة ذات الثوب الأزرق، المرأة التي تركت طفلها جائعاً، المرأة التي أرادت أن تأكل لتُرضع.

وأنا سأمضي إليها وأقول «لا أستطيع، بكاء الطفل...».

وهي ستقول «عشر دقائق وسأرضعه، خلصني!!».

«لكنه قال لي ساعة» «من؟».

«الرجل الذي قادني إلى هنا».

«خلصني الولد يبكي، لم أطبخ بعد!!».

الخلاص، كيف يكون الخلاص في مثل هذه الساعة؟ دفنت رأسي بالستارة المخملية.

طريق الخلاص، حبل الخلاص، طلقة الخلاص... لكن في النهاية هناك مخلص.

هل أنا المخلص الآن؟ قبل دقائق كنت أتسكع في الشوارع لأنني لا أحب السينما ولا الحدائق... وعندما أتعب أجلس في بوابة عمارة وأدخن، في الليل أعود إلى البيت وأنام، لكنني الآن عطشان.

«عطشان».

«ادخل واشرب». «دخلت إلى المطبخ شربت وغسلت وجهي».

«ألا يوجد نوافذ؟».

«خلف الستائر نوافذ واسعة».

«أشعر بالاختناق، سأفتحها».

«سيغضب أبي».

«أين هو؟».

«لا أعرف، لكنه سيعود بعد ساعة، ألم يقل لك ذلك».

«الرجل...».

«نعم هو أبي، أما تزال تؤمن بالأطفال؟».

«أؤمن بهم... أؤمن بهم، هل تمتحنني؟».

«أتخاف الامتحان؟».

«قليلاً».

«الحياة سلسلة امتحانات لا تنتهي...».

«الحياة، نحن أحياء إذاً»؟

«لبّ نداءها، أنا جائع!!».

تقدمت بخطى عجوز أتلمس طريقي من خلال الستائر والجدران، عارية فوق السرير، رأيتها من زاوية الباب المشقوق، الغرفة معتمة، فوق رأسها مصباح أحمر مضيء وقرب سريرها طاولة خشبية صغيرة فوقها مذياع يبث بصوت خافت «ليالي عاشق الروح» وسمعت تمتمات الطفل، لم أفك أزرار قميصي، دفعت الباب بهدوء ودخلت.

هي لم تقل شيئاً وأنا كذلك، بحثت عن زر المصباح الكهربائي الذي يلصق عادة قرب الباب، ضغطت، أنارت الغرفة.

هي رفعت ذراعيها إلى عينيها، وأنا رأيت الأغطية والوسادة، الستائر والبلاط... ربما كل أثاث الغرفة، ملطخ بالدم والحليب. في

الزاوية رأيته كذلك، واقفاً على طرف سريره ممسكاً بإطاره الخشبي كأنما يضحك، اقتربت وركعت، لكنه صوتها مرةً أخرى.

«خلصني جاع الولد!!»

«أصحيح ما تقوله المرأة؟»

هو هز رأسه، وأنا قمت وركضت إلى حيث اعتقدت أنها الشرفة، فتحت بوابتها وصرخت بأعلى صوتي

«كوب حليب، هنا طفل جائع...»

«كوب حليب، أو، امرأة مرضعة، هنا طفل يبكي...»

جرح الشوكولا

- لميس!!

ناديتها وتركت رأسي يميل على صدري، خادمٌ اختلط في ذهنه سكر التواضع بليمون الوضاعة، انتظرت، ربما دهراً مما يعدون، سمعت حفيف أوراقي، أحسست بالتفاف الأفاعي على أغصاني ويقظة العصافير المرتابة.

ذلك في ظهيرة آب وعلى الرصيف المحاذي لبوابة العمارة.

بقيت أسبوعاً أحتال على الوقت لأتجنب مصادفة اللقاء، ببرهة صارت لميس كتلة وحل تتدحرج في رأسي، لأنني أعرف مواعيد خروجها إلى الشرفة، لم أخرج، ولأنني أعرف مواعيد نزولها إلى الشارع، لم أنزل، ولأن النافذة تأتي باسمها من أفواه أمها وإخوتها، أغلقت النافذة، وتجنباً للمصادفات لم أبارح غرفتي أسبوعاً كاملاً.

في الساعات الأخيرة تسلقت رأسي رغبة في سماع اسمها، ركضت حافياً إلى غرفة أخي الأكبر المستأثر دوماً بالمذياع الوحيد، ركعت قرب سريره وأدرت إبرة المذياع باحثاً عن برامج ما يطلبه المستمعون في المحطات.

أسندت رأسي إلى حافة السرير وأرخيت ساقيّ، سمعت أغاني وسمعت أسماء، لكن لم أسمع اسمها، تمنيت لو أتى أخي ليقفل المذياع ويركلني بحذائه الثقيل كما يفعل عادةً لأضع اللوم عليه في عدم سماع الاسم، أو صياح أختي وهي تردد أناشيدها المدرسية، لكن لم يعق استماعي أحدٌ.

رويداً رويداً رفعت رأسي وعيني لأرى ما أردت أن أرى، ألوان ضحكتها تمسح السواد الذي حل عليّ كثوب حداد، لكنها استمرت في هناءة مشيتها تتأرجح على الرصيف.

لولو!!

ناديتها كما تمنت دوماً أن أناديها، استدارت.

لا شيء يدفع نحو الانزواء، إنه آب، إذاً لا بد أن أكون على الشرفة عند العصر مع أمي.

رانيا تدس يدها بريبة في السلة الصاعدة إلى أعلى، تخطف ورقة مطوية وتزرعها في صدرها المتنامي، تنظر إلى الأعلى لتتأكد من كتامة السر وحالما تراني أطارد ذباب الانتقام عن قرص الحلوى تستدير بخفةٍ راقصةٍ وتنسل من باب الشرفة إلى عتمة فض الرسالة، وغسان يبقى على الشرفة منتظراً خروجها الجديد المزين بتاج الغبطة ليقول لها دون أن يقول «أرأيت تلك الكلمات لي...» وهي ستبتسم، كل ذلك ليتقاولا: أحبك.

وماري روز على الشرفة أيضاً تدلك بزيت اللوز لحمها المحروق

بشموس منذورة لإظهار معبد جسدها الذي ينفث بخوره فخاخاً مباركةً للتائهين خلف كتامة الإسمنت.

وأولغا تنتظر صديقاتها قرب أطباق مهلبية البرتقال.

مرت أصابع على رأسي، ميزتها، أصابع أمي الناعمة، أصابع أم سمير المتنعمة بالبلسم الدبق، وميزته كذلك رأسي الذي انتفض مع مزمار النميمة.

اختلطت الأشياء، القهوة، الحلوى، الكلام، الذباب، وجه ميخائيل، تنهدات أمي، انذارات أم سمير، شيءٌ كأنه قلبي سقط من أعلى الشرفة.

ماذا فعل ميخائيل؟ لا شيء سوى أنه استغل تعلق لولو بأصابع السكاكر الملونة، واستغل أيضاً جهلها بالتمييز بين الأشياء، وأيضاً نومي قيلولة ظهيرة آب.

كنت كعادتي، سأقف أمام بوابة العمارة، لا لشيء إلا لأسمع نداء أمي من الشرفة العالية،

«ستقتلك الشمس، اصعد لتنام!!»

رغم أني في الظل سأصعد وأركض إليها لأستنشق عبق البرودة المسكر في جحيم آب، ورائحة أمي كذلك، للأم رائحة: رائحة مهلبية اللوز المشبعة بماء الزهر.

ميخائيل الحقير، السافل، الشاذ، مات.

ميخائيل الذي باعنا الشوكولا والسكاكر، البالونات والبوظة والمسدسات البلاستيكية مات.

ميخائيل الذي نام في بيت أخته عاماً كاملاً بعد أن باعت زوجته

بيتهم وسبقته إلى الأرجنتين مع ولديها وابنتهما، ضاع في شوارع المدينة وأزقتها، لم يعرف كيف يحل لغز الافتراق المجنون، ولم يعرف كيف يلملم رماد ستين عاماً زرعه في كل الأماكن التي أحبها ليحمله في حقيبته ويدفنه بعيداً.

كنت أجلس أمامه على طرف الرصيف، أراه يتقوس وأرى أرفف الدكان تفرغ... «عم ميخائيل لماذا فعلت ذلك مع لولو؟»

زوجته وولداه وابنته يأتون كل صباح إلى المرفأ ويسألون عن باخرة تأتي من الشرق الأوسط ويستعدون للركض والاحتضان الأليف... ميخائيل لن يأتي.

لولو التي هي لميس وسوسو كذلك في السجن لأنها قتلت أستاذها الذي عزم على اغتصابها في بيته ثمناً لخمس علامات في مادة توقف عليها تخرجها.

رعف داخلها جرح قديم: جرح الشوكولا.

عرفت ذلك من رسالتي أختي «ألا تذكر لميس؟ لميس ابنة جيراننا في السجن، المسكينة مظلومة...»

- لماذا درست الكيمياء التطبيقية؟
- فكرت طويلاً بأن أحوّل القبو إلى معمل صابون.
- لأجل الصابون إذاً؟
- لأجل أشياء كثيرة.
- سأحلم من الآن برؤية أناس نظيفين.
- أنت تبالغ، الصابون لن يزيل إلا الدهن والغبار.

- هذا يكفي، لا أطمع في أكثر من ذلك يا لميس.

في رسالتي أردت أن أسأل عنها، لربما خرجت من السجن، لكنني لم أستطع.

ارتبكت كأن طفولة الرصيف لم تغادرني بعد.

لكن أختي كتبت «... وماما تسلم عليك وترسل إليك مليون قبلة، لو ترى الماما في هذه الأيام لن تعرفها، حيويتها وأحاديثها، ما عادت تتحدث عن الطبخ والغسل، تعمل وتطبخ بصمت، وتذهب كل أسبوع إلى السجن لزيارة لميس، تذكر لولو... لولو، ندرت أن تزورها كل أسبوع وتحمل معها ألبسة نظيفة وحلويات كي تدعو لك بالسلامة».

بالسلامة!!

أنا سالم لأن دعاء لولو الحنون أقنع الله أن يدعني حياً في طرقات غربتي الوعرة.

لكن قبلاً بدهر مما يعدون وفي ظهيرة آب وعلى ذلك الرصيف، عندما التفتت وأردت أن أقول لها:

«عندي شوكولا» ودسست يدي في جيبي بنطالي.

وأردت أن أقول «ألا تعلمين أني أحبك» وطأطأت رأسي.

لم أقل شيئاً، عندما رأيت عينيها الوديعتين تصاعدت روحي بخاراً إلى السماوات مشبعةً بآيات المغفرة.

استدرت وركضت إلى بوابة العمارة ولهثت إلى البيت لأغسل نهاراتي بالأحلام.

احتمالات

-١-

ككوب شراب كرز دلقته فتاة على ثوبها الأبيض لتأتلف باكراً حضور الدم، أطل الصباح، فتحت البوابة واقتربت مني وبدل أن تقبّلني مررت بحنو خيوط دعائها الخضراء أنشوطة حول عنقي وأدنت فمها الموشوم بحبر بنفسجي من أذني وتمتمت تعويذة ضد الموت ودروب الآلام الآتية. بعدها أنا لم أنم وهي عبرت إلى بستان المشمش.

مررت سبابتها على شفتّي ورنمت أناشيد جنتها تواً من سكينة الشوارع وبخار الأحلام.

طرت بزغب الأجنحة المتنامي على أطرافي، السماء لم تقبلني فهويت، توغلت عميقاً في التراب المبلل بأمطار الصباحات.

وساعات يغمرني الصمت، أهتف لها: عودي!!

النعاس حرق جفنّي، ستذبل أصص الورد.

سيتعطن ماء العصافير.

افتحي بوابة الشرفة لأرى حبال الغسيل!!

ولأنني أمام المرآة أنظر، عنقي جروح خضراء.

-٢-

وقف المعزون جميعاً، بانت قاتمة أرديتهم السوداء الثقيلة وبالدخان الذي احتقنت به الغرفة الكبيرة ظهروا كأشباح طالعين من الغمام.

- خسارة، خسارة كبيرة، قال الرجل.

- لكن كيف مات؟ سأل الرجل الآخر.

أسمع نشيج أمي في الغرفة المجاورة وحركة أخواتي يسعفن إغماءاتها بماء الزهر.

أبي راكعاً يرتشف الكلمات مع فناجين القهوة والسجائر، مسترسلاً مع حبات سبحته الطويلة سادراً في الحطب الذي يشتعل في المنقل.

- سنموت... كلنا سنموت.

ما أردت تشييع كلماتي إلى حديقة أبي التي تستعرض أعشابها وطحالبها.

كنت أفكر في سلمى، أختي، كيف سأطوق وجهها بكفّي وأهمس: رغم الموت الآتي، هناك حياة، حياة آتية كذلك، ولحظة أبحث عن تشخيص يقرب الفكرة سأقول إنها تشبهك، هي ستتركني وتركض إلى المرآة.

وكنت أنتظر الصوت كذلك، لننطلق خلفه إلى المقبرة، الصوت تأخر ونحن واقفون، لم توات الشجاعة أحداً ليفتح الباب.

لكنه انفتح ورأيت سلمى في بؤرة الضوء المنعش بثوب وردي طويل، صرخت كأنها صرخت، همست كأنها همست، لا يهم، لأننا سمعنا.

- بابا، قل لهم أن يذهبوا، أيقظت عبدالله، أيقظته.

كان ضرورياً أن نبكي، نطرد الدموع التي حملناها لنسكبها على القبر.

انشق السقف، هبطت أسراب حمام أبيض، لا لتعزينا فأخونا لم يمت.

لا لتلتقط حبوب الذرة فالأرض بساط صوف ملون ورماد تبغ.

لا لشيء في منطق الطير إلا لتبديد هذا السواد الذي أنهك الروح.

أردت أن أقول: إمداداً!!

لكني صرخت سلمى، وركضت حافياً خلفها إلى ساحة الدار.

النار غفت على رمادها.

-٣-

- بعد زمان ما الذي أتى بك إلى هنا؟
- أبحث عن بابونج.
- أمريضة؟
- لا، أحب رائحة البابونج.
- أتغسلين شعرك به؟
- لا، أشربه مغلياً، لكن أنت ماذا تفعل هنا؟

- أنا هنا منذ زمان طويل، ألم تتعبي؟ تعالي نجلس.
- على العشب!! سيتسخ ثوبي.
- سيتلون، قولي سيتلون...
- أما تزال تحب القمصان الخضراء؟
- لا يا ليلى... هذا ليس قميصاً أخضر، لتدن كفك، كفك الدافئة دوماً، لا تدعي اللقاء يفقدك البصر... هذا ليس قميصاً أخضر... عفن الرطوبة.

لتدن كفك، ادفعيه بلا خجل.

لا تعلمين لأنك بعيدة، ولأنك لم تأتي لزيارتي، شراييني تتصلب، هي الآن نسيج أسلاك لا أكثر تنتظر صعقة التيار، حينها، كمصباح فاسد سأتوهج لهنيهة وانطفئ تاركاً الأصدقاء تحت سلطان الظلام.

- هذا أنت لم تتغير، ربما لون القميص، شعرك، شيء ما بسيط، لكنك أنت.
- وأنت لا تنسي البابونج!!
- لن أنساه.
- أمريضة؟
- بت تنسى، قلت لك: لا، لست مريضة، أحب رائحة البابونج.
- سأجمع لك البابونج.
- نجمعه معاً.
- لكن كيف حدث ذلك يا ليلى؟

- ماذا!!
- أجدادك ابتكروا الصليب ونحن حملناه.
- معقول!!
- أنظري إلى الثقوب في كفّي.
- لا أقوى، لنجمع البابونج الآن.
- لنجمعه.

شاشتان

«والله يقبرني إياك يا عبدالله!!»

سمعت العبارة بصوت أمي المخنوق ببخار الغسيل وأنا على الرصيف أمام كومة قشور البطيخ، وعبدالله هو أخي الواقف منذ الصباح على السطح مع كتاب الفلسفة يمشي بحذر قطة بين أطباق رب البندورة التي وزعتها أمي تحت حبال الباذنجان المجوف.

لم ألتفت، شددت على القطعة المعدنية وركضت لأضحك بعيداً عن عيني أخي الناريتين، وركضت لأن الشوارع المفتوحة كأذرعة العمات كانت تقول، يومها، اركض!! وركضت لأن بسام ينتظرني أمام بوابة السينما.

«وبستان الباشا» بات خلفي، وأمامي دار المعلمين والشيخ طه ومحطة بغداد وقلبي الذي فر من قفص احتجازه أمامي كذلك.

الفتيات أكثرن من وضع الأساور الذهبية وأحمر الشفاه والكحل الغامق، والشبان انتعلوا أحذية عريضة ذات لون أحمر، الناس آمنوا، يومها، بنفوذ أوراق الحظ وفوائد الإجاص وأنا بالركض ودفء الأصدقاء.

كل شيء ضيق هنا، أثواب النساء، الابتسامات، الرصيف، حاذيت ثانوية المحبة، في الأعلى إعلانات لدواليب سيارات، أصواف، حليب، حفلة لشارل أزنافور.

«كم الساعة يا عم؟» «الثالثة!!»

لم أرَ بسام، أسندت ظهري إلى زاوية مدخل السينما وكشرطي ركضت عيناي بين الوجوه التي تمر على عجل.

«هل أخطأ السينما؟ هنا كان موعدنا وهذه إعلانات الفيلم. غراميات الليدي هاملتون. أأركض إلى بيته لأرى ما أخره؟ لن تكفيني نصف ساعة لأصل إلى الشيخ مقصود».

«كم الساعة يا عم؟» «الثالثة وعشر دقائق!!»

الرجل أخرج أفاعيه من أكياس بيضاء ووزعها كحبال على كتفيه وذراعيه، لا تخافوا!! نزعت أنيابها، اقتربوا!! كانت عباراته موجزة لتخفي الحبال الأخرى التي تشده إلى خارج البلاد.

«باكستاني!!» قال رجل وهو يعبر المجموعة التي تحلقت حول بائع الأفاعي.

«اقتربوا!! الأفاعي مباركة من الله بارك البيوت المسكونة بالأفاعي!!»

لن أقترب رغم أن الأفاعي مباركة ورغم...، بسام سيأتي مسرعاً وسيحسبني سبقته إلى الداخل.

«بعشر ليرات!!» صاح الرجل ورفع أفعى سوداء إلى الأعلى.

«ضروري ومفيد اعتياد كل شيء، حتى الأشياء الكريهة» قال أبي لعبدالله أخي وأخرج من الكيس أفعى وصرصوراً وعقرباً وضفدعة ووضعها أمامه على الطاولة. «لا تخف إنها من البلاستيك، المسها!!»

عبدالله ارتجف وأنا ضحكت.

«كم الساعة يا عم؟» «الثالثة والربع!!»

اشتريت قمع فستق وأفرغته في جيبي ولأنني أخجل من الأكل في الشارع لم أمد يدي إلى جيبي، بعد أن تُطفأ الأنوار سأتقاسمه مع بسام، رائحة الفلافل المقلية وأسياخ مشوي البصل والباذنجان واللحمة عبقت في المكان.

الرجل رمى الأطباق الخزفية على الرصيف وصاح كشيخ طريقة «ضد الكسر!!»

اقتربوا وطوقوه لا لأنهم بحاجة إلى أطباق لا تكسر، بل لأنهم في توق إلى الدهشة.

«ضد الكسر!!» قال رجل وضغط على شفته كأنه لم يصدق.

«كم الساعة يا عم؟» «الثالثة وثلث!!»

الرجل أخذ قطعة النقود ووضعها في باطن كفه وقربها من أنف الفأر الأشهب الذي يقضم شرائح الجزر في زاوية الطاولة وتركه يسحب ورقة مطوية، سحبها من فمه وأعطاها للشاب الذي فتحها بتوجس ومضى ليقرأها بعيداً.

قبل ساعة كنت هناك أستجدي قطعة نقدية وأرجو السماح

لأركض إلى السينما، وقلت لليلى أختي الجالسة فوق النونية، والتي لا تعرف الكلام ولا الاستماع «ليلى قولي لـ ماما، لتعطيني ليرة». «ليلى ألا تجيبينني قولي لـ ماما إذاً...» ولأنها خالت أنني أروي طرفة، ضحكت، وأنا ضحكت لأنني تفاءلت.

وأخي عبدالله على السطح يرمي رسائل لنجوى يكتبها على أوراق العلكة ويعود ليجلس فوق كتابه المغلق.

قبل ساعة كنت هناك، «احذروا أولاد الحرام!!» قالت أمي ولأنني لا أعرف التمييز بين أولاد الحرام والأولاد الآخرين قبلت وجه أمي الناضح عرقاً، فتحت الباب وركضت إلى بسام، صديقي.

أمي أنهت غسيلها الآن وستصعد إلى السطح، أختي ليلى نهضت عن النونية لتركض حافيةً في فسحة الدار وعبدالله سيبقى على السطح منتظراً الامتحان، وأبي لن يأتي قبل العشاء.

«كم الساعة يا عم؟» «الثالثة والنصف!!»

بسام لم يأت، وأنا ما أردت العودة إلى المنزل قبل امتلاء رأسي بالصور الملونة. استدرت ومضيت إلى الكوة، أبطأت خطواتي لأمنح فرصة جديدة لصديقي.

«تحت أم فوق؟» كان صوت الرجل من الكوة.

«تحت» وضعت أمامه نصف ليرة، أخذت البطاقة، ألتفت لأرى وجه بسام الناضح عرقاً وأسمع أنفاسه، لكنني لم أرَ أحداً.

وضعت بطاقتي في يد الرجل المفتوحة وأخذت نصفها منه،

دخلت الرواق القصير ودفعت الباب المتحرك إلى الصالة، بحثت عن مكاني وجلست.

انطفأت الأنوار وقلبي يتوهج حباً للصور المتدفقة.

الأدميرال نلسون الذي أحرق أسطول بونابرت في خليج أبي قير عاشقٌ الآن.

يكتب الرسائل ويلون قصائد ينتحلها من دواوين الشعراء.

لكن ماذا لو لم يحرق أسطول الحملة الفرنسية؟

وماذا لو لم تصل إمداداته والإمدادات الروسية كذلك إلى عكا المحاصرة؟

هل سيتغير تاريخنا الذي نقدم المواد الخام لصناعته ونغفو حتى يكتمل النسيج لنرتديه ثوب حداد لا يفنى؟

لكن ما علاقتي بهذه الأسئلة، أنا أتيت لأرى صدر إيما هاملتون العاري.

همهم العجوز الجالس في المقعد الملاصق لمقعدي، حفنت من جيبي فستقاً ومددته له، أمسك يدي والفستق، أردت أن أقول: «هذه ليست طبقاً، هذه يدي يا عم» وأردت القول: «أنا أيضاً سأقرط الفستق».

ما عدت أقوى على سحب الفستق من جيبي، ما عدت أرى تدفق المناظر...

لكن ماذا قال الأدميرال نلسون لإيما هاملتون؟

شد العجوز يدي الصغيرة المثلجة ووضعها قلنسوة على عضوه

الدافئ، يدي التي أمسكت قبل ساعة عروس زبدة وسكر، يدي التي شدت على يد أمي وسحبت بخجل الليرة المعدنية التي يشقى أبي لأجلها، يدي التي طبطبت على ظهر أختي المقمطة لتوقف بكاءها حتى تعود أمي من المطبخ.

يدي ترتجف الآن وهي تلامس عضواً منتصباً دافئاً لعجوز يخفي وجهه بكوفية رمادية ويرقب جذع الليدي هاملتون العاري.

لم أعرف شكله لأنه ليس لأولاد الحرام شكلٌ، ولم أعرف أن بسام مقيدٌ هناك في المرحاض ووالده نائم، ولم أعرف أنه بكى كثيراً وصاح:

«يا بابا لا تجعلني أخون وعداً أعطيته لصديق!!»

أضيئت الأنوار والنظارة وجهوا سيرهم من أمامي ليبصقوا عليّ ويحيوا بانحناءة الرجل المبارك.

بكيت، وصرخت «يا أمي!!»

هرعت إلى البوابة واجتزتها إلى الرصيف، هناك رأيت بائع الأفاعي أمامي يرفع أفعى سوداء إلى الأعلى ويصرخ بصوت محارب جريح:

«لم يبق غيرها!!»

سفر... سفر

كانت كلماتها موجزة...

«ريثما يعطونك جواز السفر، أرسل لنا صورة، أنت في البال دوماً، لكن الأولاد يذكرونك ولا يعرفون صورتك، أصفك لهم فينادون كل رجل يصادفونه في الطريق بابا...

بت أتحرج من الخروج معهم إلى السوق أو الحديقة، كيف لم يخطر لي حمل صورتك معي، ربما لأنني لم أتوقع تأخر جواز السفر كل هذا الوقت، لا تنسَ أنني امرأة وحيدة في غربة، جميعاً نرسل إليك القبلات...»

قبل ساعة عاد من عمله في مديرية التموين التي حول إليها بموجب قرار لم يعلن في الصحف مع مجموعة كبيرة من المعلمين بعد حملة تقييمات جرت داخل ملاكات وزارة التربية.

اغتسَل، سخن صحن البرغل الذي طبخه في اليوم السابق وروّب كوب لبن، تغدى، دخن سيجارة وتمدد على السرير.

لم يرغب في قراءة الرسالة قبل إغفاءة القيلولة، لكنه لم يغف.

«انتبه يا عدنان، صار برقبتنا أولاد، بعد سنوات سنحتاج إلى بيت

أوسع، وبعدها سيصبح الأولاد على أبواب الجامعة، مصاريفنا تزداد ودخلنا إن بقي على حاله لن يكفي». تحدثت بروح عراف يقرأ مطالع المستقبل، في هذه الغرفة حيث كانا معاً، وربما على هذا السرير، ممددين قبل النوم.

ارتعش لأنه خمّن ما سيجري وهي أسندت رأسها إلى صدره «فكر في الأولاد!!»

مد يده إلى علبة التبغ وهي شدت على يده «لا، هنا في غرفة النوم ممنوع!!»

«تعلمين بأني صرت خارج ملاك وزارة التربية، كيف سأقدم طلب الإعارة؟»

«لا يهم، تأخذ إجازة بلا راتب من المديرية وتذهب معي كوني امرأة متزوجة»

«ماذا سأعمل هناك؟»

«ستجد عملاً، مدرس خاص، محاسب، فرص العمل متوافرة، أي شيء...»

«أي شيء!! بعد هذا العمر...»

«ضروري أن نضحي لأجل أولادنا ومستقبلهم.»

مدت ذراعها من فوق صدره وأطفأت المصباح، المرأة أساس الحضارة لأنها بقيت، رسخت في الأرض، زرعت وحصدت، رفعت أعمدة البيت، أهّلت الحيوانات، وفي ساعات خلواتها نحتت قلماً وعلى لوح طين كتبت سيرتها فكان التاريخ.

وهو هرب ليكتشف أراضي جديدة تمنح عسلاً ولبناً، حمل سيفه وعبر يتعلم كيف تُشاد القلاع وكيف يفر منها ساعة الحصار.

رأسه تضجُّ بمحاكمة، محاكمة الأبوة، وقف رجل وصاح: «سفر لأجل الزواج وسفر لأجل نتائج الزواج... حياتي ضاعت في الطرقات» وأجهشت امرأة «لا تسافر، ملعون أبوه، سنأكل خبزاً وشاياً، ابق هنا قرب أولادك...»

«الأولاد، مستقبلهم، مستقبلهم هو مستقبلنا...»

«لا، لم أنم، هل ستقول شيئاً؟ أسمعك.»

«سأذهب، سنذهب معاً.»

كأنما شفتاها لامستا شفتيه، ليلتها كان لشفتيها طعم قشور البرتقال الجافة، ولشفتيه طعمٌ أيضاً، طعم الكستناء المشوية.

بعد ثلاثة أشهر كتبت له عن الكبسة وصلصة الجراد وكرم الأمراء وهدايا أولياء الطالبات...

وبعد... كتبت له كذلك عن سرقات الأطفال، والخادمات السريلانكيات والمهاجرين الأفغان...

سهيلة التي حلمت دوماً بجعل بيتها جنة، سهيلة التي تغني وهي تطبخ، التي رفضت ملامسة الحليب المجفف فم أطفالها.

بات يتخيلها هناك، بعباءة سوداء ونظارة شمسية، هناك لا تبتسم ولا تغني، تركض أول الشهر إلى مبنى المصرف لتطالب بكشف عن ودائعها «أوه... يلزمنا الكثير، مستقبل الأولاد...»

سهيلة التي كانت تصحح دفاتر تلاميذها وهي تتابع مسلسل السهرة لا لشيء إلا لتؤكد لنفسها وله أيضاً أن كل شيء يغدو رتيباً.

أخيراً حملت أولادها ومضت وهو بقي لأنه لم يحصل على جواز السفر.

«ممنوع من المغادرة!!» قال موظف إدارة الجوازات «راجعهم، ربما في المنع خطأ ما، تقع أخطاء كثيرة يا أستاذ.»

«هذه الأوراق أقدمها للمرة الثانية، عن أي خطأ تتحدث؟»

«آآآ... إذاً راجعهم، لن يحلها أحدٌ غيرهم...»

نزل سلم مبنى الحجوزات، شرب كوب تمر هندي مبرد «هم، راجعهم، غيرهم نقلوني من التعليم ولم أراجعهم، الآن... لا...»

الطريق إلى البيت طويل، فضل أن يمشيه وحيداً كما أحب دوماً عندما كان طالباً، لا من أجل فتاة سيصادفها ولا من أجل الصحة البدنية، لأجل رائحة الشوارع المتعاقبة التي تمنحه صفاءً ذهنياً وغبطةً.

«لن يعطوني جواز السفر، أختي عبلة ستسافر لتعيش معك، أنهيت لها جواز السفر وقطعت تذكرة الطائرة...» كتب لها بما يشبه البرقية، وضع الرسالة في صندوق البريد ومضى إلى السينما، شاهد فيلم «الاتجاه المعاكس».

واشترى عدة مجلات قبل أن يعود إلى البيت.

«لكم اشتقت إليك يا حبيبي، الأولاد يا الله ما أروعهم، أشعر أني مقصرة في حقهم، العمل يأخذ معظم وقتي، هاني يشبهك، وهالة لا

تشبهني ولا تشبهك، أعتقد أنها تشبه عمتها عبلة، بسام يا لروعة بسام يشبهني أنفه وعيناه كأنهما لي...»

يوم الجمعة ذهب إلى الحلاق، اغتسل، دخن سيجارة على الشرفة وخرج إلى المصور «لكن، لماذا لم يخطر لها أنني بحاجة إلى صورهم!!»

لم يظهر العطر الذي أصر على وضعه قبل جلوسه على الكرسي، ولا أصابعه المرتجفة، الدمعة التي بات يقتنع أنها تحبس في الفم لا في المدمع، القميص الكرزي، القميص الذي كانت تفضله عليه.

لم يطالبها بصور لأنه انتظر عطلة الصيف.

كانت كلماتها موجزة...

«لن آتي هذا الصيف، كل ما وفرته سيضيع في أجرة الطريق والهدايا والنزهات... في عطلة الصيف سأفتح دورات تعليمية، عبلة تساعدني ولا أعرف ما كنت سأفعل بدونها، لو تأتي أنت أيضاً، كم سيرتفع دخلنا ونختصر المدة...»

دروب الزعفران

- الزيارات ممنوعة، ليس بيدي شيءٌ أفعله لكما، التعليمات تأتينا من فوق... رفع إصبعه إلى السقف ليؤكد على الفوق.
- قالوا لنا إنك تستطيع، قالت الأم ومسحت زاويتي فمها بالمنديل الورقي الذي بيدها.
- أستطيع!! أنا عبد مأمور يا أختي...

صمتت الأم والأب لم يتكلم في غرفة واسعة لا تحتمل الصمت.

- أنتما ضيفاي الآن، سنشرب شيئاً قهوة، شاي؟
- ماء، قالت الأم والأب لم يقل شيئاً.

ضغط على زر مثبت على طرف الطاولة، فتح الباب وظهر بفرجته شاب.

- أمرك سيدي.
- ماذا تشرب يا عم؟
- شكراً، خرجت الكلمة بما يشبه الهمس.
- لا يجوز سنشرب شيئاً.
- قهوة.

- قهوة وكوب ماء.
- أمرك سيدي، أغلق الباب وعاد الصمت.

الستائر المعدنية تمنع دخول ضوء الشمس، مصابيح النيون تسكب ضوءها الحليبي على الطاولة الواسعة والأوراق، المصنفات، الهواتف، المنافض، السجادة، الطاولات الموزعة بين الكراسي والمقاعد والوجوه الثلاثة.

قبل خمس سنوات وفي ليلة السابع عشر من نيسان دق باب بيتهم، لم تكن أيدياً فللأيدي حنانها على الخشب، وهدر صوت معدني «افتحوا يا حيوانات...»

انسحب الأب من تحت الأغطية والأم تبعته.

عندما فتح باب البيت نظر إلى الأعلى ليرى وجه القمر، لكنه رأى أشباحاً تتدلى من السطوح، أضاء المصباح الخارجي، ببطء نزل الدرجات الثلاث إلى أرض الدار، سعل ليطرد لعاب الخوف قبل أن يفتح الباب الخارجي.

«افتحوا يا حيوانات!!»

رغم أنه ليس حيواناً لبى النداء وفتح الباب، اندفع إلى الداخل مجموعة من المسلحين.

«أين هو؟» «من؟»

«محمد» «محمد في فراشه، سأوقظه لك».

«ادخلوا وهاتوه!!» وجه أوامره إلى مسلحيه.

كانت الأم واقفة في الباب «ابقوا هنا... سأوقظه...» لم تكمل كلماتها واقفة، والمسلحون اندفعوا إلى الغرف، غرف النائمين.

«لكن هذا لا يجوز، حرام... ما عندكم أخوات» كانت آخر الزفرات من أرض الأم.

«أهذا هو محمد...»

«هو سيدي»

«أين ستأخذونه؟» سألت الأم من أرضها.

«نزهة!!»

تحلق الأخوة، لامسوه، قبلوا كمّيه وعنقه ورأسه.

دارت المحركات، كان القمر بدراً في ليلة السابع عشر من نيسان.

الأب انكسر على الباب الذي بقي مفتوحاً، والأولاد ارتموا على الأم الممدودة فوق البلاط المبلل.

في الصباحات التالية عرفت الأم أنها ليست وحيدة، هناك من هُنّ مثلها مئات، آلاف، لم تعرف، لكنها ليست وحيدة.

«منذ أن أخذوه لم أره» قالت الأم الأخرى.

«ألم تسمعي شيئاً عن صحته، هل هو حي أم ميت؟» لكنها ابتلعت الكلمات كما هنّ أيضاً يبتلعن الكلمات عندما يسألنها.

«لو يخرج أحدٌ من هناك!!»

«ألا يخرج أحدٌ»

«لم أر أحداً خارجاً من هناك». ردت الأم الأخرى بانكسار.

«لماذا لا نقرأ فنجان القهوة؟»

«أسمعك، لا تخبئي شيئاً، أسمعك»

اشتبكت الخطوط في الفنجان وفي عيني الأم، وضعت الفنجان فوق طبقه، رسمت على شفتيها ابتسامة اعتذار ودودة، «مرة أخرى... سأشتري بناً طازجاً، نشرب القهوة وأقرؤه لك...» ونهضت إلى المطبخ والأم الأخرى مضت إلى الباب المفتوح.

«من الضروري معرفة من اعتقله أولاً، بعدها نتابع، الدخول إلى تلك المباني صعب والسجون تحتاج إلى بطاقة زيارة، هذا ما عرفته» قال الأب.

«هل سألت أحداً؟» سأسأل كل من أعرفه، لكن ربما يعود محمد سننتظر شهراً آخر...»

لم ينتظر، منذ صباح الاعتقال، سأل، استفسر، تذلل، سافر إلى قرى بعيدة وعاد منكسراً، اقترح هدايا، اقترح مالاً... «الابن مستحيل» وفي طرقات عوداته كان يبكي بصمت هو صمته، وبوحشة الوحدة، وحدته.

يفتعل الأحاديث أمام زوجته وأولاده ليؤكد على أهمية مسلسل السهرة والرياضة والمدارس الصيفية... كل ذلك ليبعدهم ويبقى ملتصقاً بجرحه.

«سمعت عن إفراجات» قالت الأم.

«وأنا أيضاً، لكن لم أعرف شيئاً عن أخبار محمد»

«أسألت؟»

«سألت يا أم محمد، سألت، وبت أخجل من الناس...»

«أنا أيضاً أسأل يا أمي... الناس تخاف...» قال عبدالله.

«لا تسأل إلا من تثق به...» قال محمود.

«أسأل أصدقائي...» رد عبدالله.

«أعرف... لكن الحذر ضروري» رد محمود.

«أي حذر... منذ ليلة اعتقاله والجيران يعرفون أن محمداً معتقل، في الصباح سألني عبد السلام؟ محمد أم الوالد» ساد الصمت في الغرفة، بثينة ومروة تكتبان وظائفهما على طاولة صغيرة في الزاوية، الأم غطت وجهها بيديها.

«اعتقال محمد هدني، تذللت أمام ناس لا تستأهل صباح الخير، برضاي عليكم يا أولاد، لأجلي ولأجل العجوز أمكم، اهتموا بدروسكم، دروسكم فقط، سأحضر لكم كل ما تريدونه، فكروا في المدرسة والبيت كرامةً لشيبتي كرامةً لأمكم... قرعت الأبواب ابتسمت وتزلفت بعد كل ذلك لا أعرف أحيٌّ هو أم ميت...»

بكى...

«لا تبك يا بابا!!» صرخت بثينة وهرعت لتركع أمام ركبتيه المرتجفتين.

- أبو عبدو سيحلها أخيراً، قال الصديق.

- من أبو عبدو؟ سأل الأب.

- أبو عبدو عفيفي.
- تاجر العقارات.
- هو نفسه، حدثته بقصة محمد منذ زمن وانتظرت رده ثلاثة أشهر، البارحة أبلغني بإمكانية الحصول على زيارة.
- من فمك إلى أبواب السماء، لكن كيف؟

بعد خمس سنوات كانوا قد عرفوا الكثير، فرع المخابرات العسكرية هو من اعتقل محمداً، الأشهر الأربعة الأولى قضاها في فرع التحقيق، وبعدها نقل وبقي في سجن العاصمة، سنة على وجه التقريب، نقل بعدها إلى سجن النخيل الصحراوي حيث يجري توزيع المحكومين على مهاجع بحسب أحكامهم.

مهاجع للمحكومين بالبراءة، وأن تكون من المحكومين بالبراءة لا يعني الإفراج عنك، فهناك من قضى أكثر من خمس سنوات وهو محكوم بالبراءة.

وهناك مهاجع للمحكومين بالإعدام وعمليات الإعدام تجري كل خميس واثنين داخل السجن شنقاً، وعرفوا أنه حدثت مذبحة داخل السجن قتل فيها ستمائة سجين... عرفوا الكثير، لكن ما لم يعرفوه: حكمه.

- ما اسم هذا البلد؟ سأل السائح.
- هذا ليس بلداً، هذا جغرافية فحسب، قال الشاب واختفى في زقاق معتم.

قرع الباب برفق، دخل الشاب حاملاً صينية القهوة، شربت الأم كأس الماء، وترك الأب الفنجان أمامه على الطاولة الصغيرة، أشعل الرجل سيجارة ورشف من فنجان قهوته.

- كيف أبو عبدو؟ سأل الرجل ليذكرهما بسبب حضورهما.
- أبو عبدو يسلم عليك، رد الأب.
- لأجل خاطره سأسعى بهذه الخدمة.
- الله يخليك ويطول عمرك وعمر أولادك قالت الأم والأب قال كلاماً مشابهاً.

نهض الأب ووضع فوق الطاولة ظرفاً أصفر «خمسون ألفاً» قال والرجل تابع رشف قهوته وتدخين السيجارة.

محمود أرسل من الكويت خمسة عشر ألفاً وعبدالله أرسل من ليبيا عشرة آلاف والأم باعت قسماً من مصاغها بخمسة وعشرين ألفاً.

- سترونه، قال الرجل مثبتاً نظره على الظرف الأصفر.
- هو حي إذاً، صاح قلب الأم.

الرجل لم ينطق بكلمة، للكلمات ثمن هنا.

- متى؟ سأل الأب.
- بعد أسبوع تماماً.
- كيف؟ أين؟
- سيبقى سراً بيننا... أنتما من سيزوره فقط.

«في الزيارة القادمة سآتي معكما، بلغوه سلامي وقبلاتي» كان صوت عبدالله من بنغاري.

«لو تتأخر الزيارة أسبوعاً سأقدم إجازة وآتي لأذهب معكما» كان صوت محمود من الكويت.

«يا أمي أمانة عشر قبلات أمانة...» كان صوته كذلك.

حضرت بثينة من مدينة أخرى حيث تسكن وتعمل مع زوجها ومروة لم تغادر المطبخ وهي تعد أطعمة وحلويات.

في تلك الليلة جرى كل شيء بروح احتفالات الأعياد.

جلس الأب، سجل قائمة بأسماء مفقودين ليسأل عنهم.

الأم وبثينة انشغلتا بإعداد الحقائب، ألبسة داخلية ومناشف ومنامة، بنطال وقمصان وكنزات صوفية وجوارب، مناديل ورقية وأدوية، زجاجة عطر... «تذكّرن... عندنا وقت حتى الصباح...» قال الأب.

«كنت أنسى، بثينة، أعطني القرآن سيحتاج إليه هناك كما نحتاج إليه نحن هنا» قالت الأم.

في تلك الليلة لم ينم أحدٌ، تسامروا حتى الفجر، رووا النكات ليطردوا أشباح الافتقاد، هللوا له، للابن المستعاد، ضحكوا حتى سال ما كان يسيل دوماً: الدموع.

تزينت الأم كعروس، الأب حلق وتعطر وارتدى طقمه الكحلي.

«لا دموع يا أم محمد، ليكن اللقاء رائقاً!!»

«يا أمي لا تنسي القبلات والسلامات...»

«قولي له مشتاقة، مروة مشتاقة إليك.»

استدعي محمداً من سجنه بقرار من رئيس الفرع بذريعة إعادة التحقيق، أو استكمال التحقيق، أبقاه في الزنزانة الانفرادية ثلاثة أيام، وفي صباح يوم الزيارة طالب أن يستحم ويحلق ذقنه، في الساعة العاشرة لقن السائق التعليمات.

في طريق العودة إلى سجن النخيل الصحراوي، توقفت السيارة أمام بوابة «مدرسة الأخوة» ليشتري السائق علبة تبغ وعبوة مياه معدنية، هناك وأمام البوابة الأب والأم والحقائب منذ الساعة السابعة يترقبان سيارة مرسيدس سوداء.

«السيارة» هتف الأب.

فتحت نافذتها وخرج رأس بعينين تائهتين، ليس أكثر من رأس، الشعر القصير أظهر بياض فروته، قفزت عيناه إلى الرصيف والأشجار، كأنما كانتا تفتشان.

«ليس هو» قالت الأم.

«سننتظر» قال الأب.

عاد السائق، أدار المحرك، «ماما... بابا...» كأنها اللغة عادت إلى طفولتها «ماما...بابا» انفجر الصوت من النافذة، سحجت العجلات على الإسفلت وانطلقت السيارة، هو لم يعرف إن كانا قد سمعا الصوت، صوته، وهما لم يعرفا إن كان أحدٌ ناداهما، لكنهما بقيا على الرصيف المحاذي لمدرسة «الإخوة...» واقفين كما أشجار السرو المغروسة في وسطه ينتظران سيارة مرسيدس سوداء.

- سوداء أليس كذلك؟

- سوداء!!

دم أبيض

- ستموت، احتفظ بأموالك لأولادك، قالت الطبيبة.
- لا أموال عندي، قال فاغيلوس بصوت يشبه النحيب، ولا أولاد.

التقينا في مشفى «كركينا بوتنسه» في صوفيا، كنت مع مجموعة جرحى لبنانيين وسوريين وعراقيين نقلنا من صيدا للعلاج، وهو شاب يوناني اسمه فاغيلوس ويعني بلغتنا البشارة أو الإنجيل، أوفده الحزب الشيوعي لدراسة السينما، لم يكن يشكو شيئاً أدخل المشفى لأجل فحوص اطمئنانية.

- لكن، أشعر أحياناً بوهن عام، ربما بسبب القراءة والسهر، قال للطبيبة المشرفة.
- سأجري لك فحوصاً عامة، لن نخسر شيئاً.

بعد ثلاثة أيام أنزلت سيفها العلمي البارد على جسده:

- سرطان دم.

كان جالساً أمام طاولتها يدخن ويقلب صفحات مجلة طبية.

- سرطان دم!!

فاغيلوس صار قالب شمع من الشموع التي أشعلها أمام أيقونة قديسه الأفضل غريغوريوس.

- الأفضل أن تعود إلى اليونان، أو تخبر أسرتك لتأتي وتأخذك.

لم ينطق بحرف وهي استدارت من خلف الطاولة وجلست أمامه، لم يرفع عينيه عن المجلة، ارتجف كأوراقها.

عندما خرج المخدر من دمي سمعت صوته: «كالي ميرا» صباح الخير!!

كان جالساً على كرسي أبيض قرب السرير، هو يبتسم وأنا لم أستطع.

«كالايني» كيف صحتك؟

أردت ماءً، أردت مسكنات إضافية، عظم الترقوة المفتت يلتحم الآن.

هو ضغط على زر الجرس، حضرت الممرضة، وقف بالباب، رفع ذراعه «براستيكا» لتكن أكثر سعادة!! وغاب.

كنت أصحو بين بطلان فاعلية أقراص المسكنات، أضغط على زر الجرس وأنام.

«كالي ميرا» صباح الخير!! كان هو مرة أخرى.

«تيكانيس» كيفك!!

لم أقل له يومها «دي نيكي كالو» لست بخير، لأنني لم أعرف

بعد كلمات التخاطب اليونانية، كنت أهز رأسي، أبتسم، أضغط على شفتي، أفرك لحيتي الطويلة: كنت أقلده.

«لو تضعونني في غرفة أخرى، الوحدة تقتلني» قلت للممرضة زويا التي تعرف العربية باللهجة العراقية حيث عملت خمس سنوات أثناء الحرب.

«سأخبر البروفيسور طلبك، أتحتاج إلى خدمة الآن؟»

«أريد النوم!!» لم تفعل شيئاً لأنني نمت وكانت ابتسامتها آخر ما رأيت.

«براكالو لولو زيسي» سأحضر لك وردة!! قال ولامس بإصبعه جبيني.

«خاريستو» شكراً!!

هناك في الغرفة الجماعية، تجول بيننا حاملاً كتاب شعر لـ يانيس ريتسوس، سألنا عن بيروت والقدس، وسألناه عن أثينا وكريت وقبرص. «أحلم بفيلم عن شعوب المتوسط، أشياؤنا المشتركة كثيرة، مدرسة الإسكندرية وإنطاكية...، الاحتلال العثماني...، حروب التحرر القومي، الاستعمار الإمبريالي، النضالات لأجل الاستقلال.

أرسطو تجول بيننا جميعاً.

- لكن كيف سيكون الحوار؟
- الكلام في السينما يعني العجز عن توصيل الفكرة بالصورة والموسيقى، لا أميل إلى الكلام، كما نحن الآن نتواصل

بأنصاف كلمات وأرباع جمل، لكنّا نتواصل، نتواصل بطريقة ما.

في الفن تسكب روح الشعوب، ذاكرتها، تاريخها، آمالها، آلامها، وأحلامها.

سأختار قصائد لـ ناظم حكمت وريتسوس ولوركا ومحمود درويش...

ولأحولها إلى صور، صورها أمزجها بموسيقى يونانية وتركية وإسبانية وعربية.

- حلم الإسكندر بإمبراطورية الشمس.
- لكنه مات باكراً.
- باكراً!!

«يا خاراسوس» إلى اللقاء!!

افتقدناه في ليلة السابع من آب، خرج من المشفى ليشتري فودكا، عاد وجلس في الحديقة، شرب وغنى ورقص...

في الليل سمعنا صوتاً، للسقوط صوت، رمى نفسه من غرفة في الطابق الثاني.

- كسور في الساق والحوض وارتجاج في الدماغ، قالت زويا.
- أنستطيع زيارته؟
- الآن!! لا.

«مكان غير مرئي، لو ذراعي، قدمي، لو ورم في الصدر سأراه، سأتحسسه بأصابعي، ألحسه بساني، في الدم... الدم!!»

عض معصمه، ضرب كفه على الغطاء الأبيض. «ها هو دمي كما أعرفه منذ زمان... أين السرطان؟ اقتربوا... تعالوا... الصقوا أنوفكم لتشموا رائحة اللوز والعنب والأسماك والزيتون... أشعار هوميروس وكافافي وريتسوس وموسيقى ثيودوراكس...»

- فاغيلوس!!
- لأنه سمع اسمه صمت، ونحن الواقفين حول سريره بضماداتنا وعكاكيزنا والأنابيب الخارجة من جروحنا المتقيحة التفتنا.
- كارمن!!

عرفناها جميعاً، الفتاة التي حملت كساح الأطفال وأتت من برشلونة مع أمها لتتعالج.

فاغيلوس، هذه الورود ستنعش روحك.

أسندت عكازيها إلى طرف السرير ووضعت الباقة في كأس الماء.

- ستموت، احتفظ بأموالك لأولادك، قالت الطبيبة.
- لا أموال عندي ولا أولاد، عندي أحلام فقط، أين سأحتفظ بها؟

الطبيبة صمتت، هو قال: أبإمكاني رؤيتهم؟

- من؟

- الجرحى.
- بالطبع.

وكارمن؟

- وكارمن كذلك.

«أرجوك خذيني إليهم، أريد أن أحكي لهم عن...»

«كُتبت هذه القصص في دمشق ١٩٩٤م»

... طاولة كبيرة، كأنها مشرحة أو مائدة العشاء الأخير، أوراق مضغوطة بمكعب رخامي، مصنفات خضراء، أقلام منتصبة على هيئة بطاريات صواريخ، علبة مناديل ورقية يخرج منها حبل متصل من المناديل البيضاء - الزهرية- السماوية، منفضة كبيرة من البلور بحجم طنجرة أو وعاء مرق دجاج، مروحة عريضة من أغصان نباتات أمازونية.

"يوم.. كل يوم"

عزيز تبسي، كاتب وروائي سوري


ISBN 978-614-432-355-7